يحيى عزام

عندما يعزف الشيطان

دار ن للنشر والتوزيع

عندما يعزف الشيطان

الكتاب: عندما يعزف الشيطان

الكاتب: يحيى عزام

الترقيم الدولي: 9789777783002

الطبعة الأولى:2022

تم تجهيز هذه النسخة بواسطة: أشرف غالب



عمارات منتصر - الهرم - الجيزة 20

011 27772007-02 35860372

Noon_publishing@yahoo.com



يحيى عزام

عندما يعزف الشيطان

رواية



إهداء

«إلى صديقي الذي يشاطرني الطريق منذ بدايته»

إلى أمّي وأبي وإخوتي

إلى كل من شاركني فرحتي الأولى، واقتطع من وقته الثمين جزءًا كي يشاركني أفكاره ووجهة نظره عمّا كتبه قلمي، شكرا لك.



عزيزي القارئ، أشكرك لكونك على قيد الحياة، وإن كانت في سطور هذه الرواية حياة أخرى أرجو أن تعيشها معي في قصّتنا أشخاص كثر، يتشابهون معنا ويختلفون عنّا، بل ربما يكون أولئك الأشخاص شخصًا واحدًا في فترات مختلفة من حياته يناقض الواحدُ منهم الآخر، فلا عجب أن تكره نفسك الآن ثم عندما تمضي بك السنون تجد أنك أحببت ماضيك أكثر من حاضرك، ولربما تطمح أن ترى لنفسك مستقبلًا ترضى عنه، فلمّا تصل إليه تجد نفسك قد أحببت ذاتك أكثر من الذات الذات التي كنت تطمع فيها ولا أعلم إن كنتَ تهتم لكنّي أحبّك، وأحب من يحبك في كل فترات حياتك فرجاءً اقرأ سطوري بعناية فهذه باكورة كتاباتي، والتمس لي من الأعذار سبعين حتى لا يتوقف قلمي عن الكتابة كما لا تتوقف عن العزف الشياطين.

مقدّمـة

اعتدت قضاء العيد في قريتنا الصغيرة مع جدّي الذي صارعه الدهر حتى أعلن استسلامه، عاش جدي طويلا بما يكفي كي يدرك عصورًا وأزمنةً مختلفة، فكم من قرية أدركها في شبابه وفي هِرمه ليقص لنا من القصص أجملها، فهذه قرية لا يجوع فيها الناس، وتلك قرية أهلها مترفون.

وكعادتي كنت طفلًا كثير السؤال، فسألته عن أغرب القرى التى أدركها فقصّ علي من القَصص ما لا أنساه عن قرية كان يعرفها، قرية اعتاد أهلها ألّا يتركوا صلاةً خارج مسجدهم الذي لن تجد فيه موطئ قدم من كثرة قاصديه. عاش أهل القرية لا يكفون عن عبادتهم، فلا خمر تُسقى، ولا بيوت تُنهب، ولا يُهتك فيها عرض ولا دم يُراق. تتابعت الأجيال حتى يأس منهم الشياطين فذهبوا لكبيرهم يستفتونه:

- مولاي! إن أهل هذه القرية لا يتركون أعمالهم إلا لصلاة في مسجدهم، ولا يتركون أفرشتهم إلا لفجر يستمعون أذانه، ولا تلهيهم تجارةُ ولا بيعُ عن ذكر الله ولا يلتفتون لحسناوات النساء من هنا أو من هناك، ولا يتركون حقا إلا ويردونه لأهله دون سهو او انقطاع، ولا تتفحص أعينهم المارة ولا يخوضون في أعراضهم، وإن لنا في هذه القرية أكثر من مائة عام وما يزيدهم الزمن إلا تقوً وإيمانًا حتى لم يعد فيهم منكـرٌ يتناهون عنه، فافتنا وانظر ماذا ترى إنَّا لمنصتون.

فما كان رد سيدهم إلا أن قال:

- انظروا ولكم في ذلك عبرة وسُنّة تتبعونها.

فتمثل الشيطان ليلاً في هيئة عازفٍ حسن الوجه، كثيفة هي لحيته كأنه منهم، فارع الطول نظيف الثياب لا يبدو عليه شقاء أو عناء، واتخذ مكانًا له بالقرب من مسجد القرية الكبير خلف جدار - ربما كان أحد التجار ينتوي أن يجعل منه وقفاً للفقراء وأبناء السبيل - وقبيل أذان الفجر بقليل بدأ يعزف على آلته الربابة مرَّ اليوم الأول ولم يلتفت أحدٌ لهذا الرجل ولا لهيئته، ربما هو متسول مسكين أساء التموقع لطلب إحسانٍ من أهل القرية، وربما هو عازف متجول يجوب القرى ليجمع رزقه كما اعتدنا أن نرى، وربما هو أي شيء آخر، فلم يلتفت له أحد من المهرولين لصلاة الفجر التي اعتادوا على أدائها.

عدة أيام مرت دون أن يحدث تأثير حقيقي حتى ولو ضئيل في نفوس أهل القرية حتى ذلك اليوم الذي نزل فيه أحد المصلين متأخرًا قليلًا، فسمع مقطوعة من عزف الرجل فتأثر بها قلبه ووقف لثوانٍ لتدمع عيناه قليلًا، قبل أن يسمع إقامة الصلاة فيهرول يائسًا للحاق بتكبيرة الإحرام بينما لم يتوقف العازف عن عزفه. جاء فجر اليوم التالي لينزل صاحبنا مبكرًا ليستمع لتلك المقطوعة التي رق لها قلبه ودمعت لها عيناه، وتأثر بها مجددًا بينما يفكر في العازف، ما دوافعه، وما الذي يبقيه في هذا الصقيع يعزف تلك الألحان الرقيقة التي تقتحم القلوب؟ ثم مع هرولة المصلين هرول معهم، خوفًا من أن يُقال إنه أقل منهم إيمانًا وتقوى. ومر القليل من تلك الليالي الباردة مع تغير طفيف،

فصار صاحبنا يقف لساعات مع صديقين له كانا يتشاركان في بعض التجارة والمعاملات اليومية، تأثرا به وبعزفه وبتلك العواطف الجياشة التي تنشرها ألحانه، فهذا تذكر يوم قضت أمه نحبها، و ذاك تذكر يوم تزوجت محبوبته من شخص اخر.

ومع توالِ الليالي يزداد عدد المستمعين العاشقين الهائمين في تلك الألحان، فيقرر أحد التجار أن يبني بيتـًا للعازف يقيه من هذا البرد ومن سباع الطريق، ولم يمضِ من الوقت الكثير إلا ليقوم تاجر آخر بتوسيع هذا البيت حتى يسع العدد الأكبر من المستمعين، فكما تعلم، الجو بالخارج بارد فلما ازداد عدد المستمتعين بألحان ذلك الفنان قام بعض المتطوعين بوضع الكراسي والطاولات، واستغل أحد التجار ذلك فصار يقدم المشروبات والعصائر مُوظِفا بذلك بعض صبيان القرية الطموحين لخدمة الرجال الحاضرين. وتمر الأيام فتسمع إحدى فتيات الطريق - والتي هربت من قريتها لأسباب لا نعلمها - أن هذه القرية إذا انتصف الليل فيها ترك رجالها نساءهم وديارهم وتجمعوا عند العازف، فدخلت وهي تسعى لنيل رضاهم بالطريقة التي تعرفها أنت كما أعرفها، وتسمع باقِ فتيات الطريق اللاتي لم تختلف ظروفهن كثيرا عن سابقتهن ليقمن بنفس ما فعلت، حتى بادرت إحداهن ببيع فرجها لأحد الرجال لتتبعها بقيـَّتهن، ويولِّين بين أنفسهن الأكبر سنـًا لتنظيم ذلك بينهن وبين الرجال. وازداد طمع التجار فقام أحدهم ببيع الخمر لأن سعره أغلى ولأن الرجال استمتعوا به في المرات القليلة التي قُدم لهم فيها، حتى أن صبيًا من أولئك الصبية عندما رأى أحد الرجال قد أسكرته الخمر حتى العمى أخذه لداره مع أذان الفجر فوجد امرأته

- التي ربما كانت جميلة - فهمّت به وهمَّ بها وأغفل برهان ربه، فإذا انتصف الليل كل ليلة تجدد اللقاء بينهما. ولم يمضِ الكثير حتى اغتبط بقية الصبيان من زميلهم الذي أضحى يقص بطولاته عليهم، فمنهم من قلدوه ومنهم من وشوا به عند زوج صاحبته وهو مخمورٌ، فقتله وامرأته وأتبع ذلك بقتل نفسه خوفـًا من أهل قريته.

مرت الأيام مذّاك الحين ولم يترك صاحبنا ربابته الّتي تخطف الآذان والقلوب، ولم يتوقف رجال قريتنا عن الحضور، حتى صار المؤذن نفسه أول الحاضرين، حيث يجتمع الرجال والنساء عندما يعزف الشيطان.

تمّ تجهيز هذه النسخة بواسطة:
أشرف غالب.

twinkling_7



(١)

الفوضى

كان يومًا جديدًا لا فائدة له ولا معنى إلّا أنّي ما زلت حيًا - للأسف - استغرقت بضع ثوانٍ لأدرك ذلك بعد أن كان ذلك العصفور المزعج - الذي لطالما نال مني أقذع الشتائم وأبشعها - يصدر نغماتٍ لا تدل على شيءٍ مطلقًا فكانت تشكّل مع صوت المنبه سيمفونيّةً مزعجةً من تلك التي يحبها بعض الحمقى عليَّ الآن أن أنهض من هذا السرير لأبدأ يومًا جديدًا، ربّما سيكون مختلفًا عن سابقه ولكنّه لن يكون أفضل - فهذه قاعدةٌ يا صديقي- طقطقت بأصابعي فأضيئت الغرفة لأرى أن الساعة ما تزال الثامنة صباحًا وأنّني لم أنم الا بضع سويعاتٍ قليلة ناديت على أمي التي لوهلةٍ ظننت أنّها ما تزال على قيد الحياة - هي أو شقيقتي أو ربّما أيّ شخصٍ أعرفه- مطالبًا إيّاها كعادتي بالقهوة حتى أنهض من سريري.

قمت سريعًا بعد أن أدركت مدى سخافة عقلي حين استيقظ فحضّرت فنجان القهوة وأخذت حمامًا باردًا حتى تستريح عظامي المسكينة البائسة المتيّبسة، خرجت لأشرب ذلك الفنجان الساخن وأخذت أقراص الفيتامينات بينما أتابع «نشرة التاسعة - الأول من سبتمبر أيلول للعام ٢٠٣٢ - مالي وجمهوريّة إفريقيا الوسطى يوقّعان مع فرنسا إتفاقية الاستسلام غير المشروط، الرئيس الأمريكي «ميلر» يحذّر من تصاعد وتيرة أحداث العنف الذي يدعو له منافسه على مقعد رئاسة

البلاد ، الأمين العامُّ للأمم المتّحدة يعرب عن قلقه تجاه أحداث موسكو الأخيرة، النادي الأهلي يتّوج بلقب الدوري المصري للمرّة الخمسين في تاريخه، رئيس نادى الزمالك يتّهم الأهلي بالفوز بالسحر،......» أخبارٌ ممّلةٌ ومكرّرةٌ ومتوقّعةٌ كذلك، كدت أنهى قهوتي حين اتصل بي أحدهم إنّه صبري، ابن عمي: - ماذا هناك! هل من جديد؟

- سأعتبر أنّك ألقيت عليَّ التحيّة وسأردها لك، نعم هناك أخبارٌ جيّدة، لقد توصلنا للفاعل - حقًا! أواثقٌ ممّا تقول يا صبري! - بالطبع، لقد وزّعنا عناصرَ صحفيّةً وأمنيّةً في كلّ مكانٍ في العالم تقريبًا حتى نتوصّل لمكانه، وكما توقعنا، فقد قُتِلَ - - من هو وأين وجدتموه! انتظر انتظر الكلام هنا لن يجدي، أريد أن أراك.

- وهل سأنتظرك لتقول ذلك؟ قابلني بعد ساعتين في القناة.

- ليكن، ساعتان من الآن وستجدني عندك.

يا الله! خمس سنواتٍ كاملة حتى أعرف مصيره! كنت متأكدًا تمامًا من اغتياله لكنّي كنت فقدت الأمل في إيجاده. ولكن من يكون هذا القذر، بالتأكيد هو مجرّد حشرةٍ تابعةٍ لقاتلٍ أكبر، بالتأكيد هم من قتلوه.

ارتديت قميصي الأسود وبنطالًا له نفس اللون وجلست أمام مكتبي - والذي كان بداخل الغرفة - قمت بإحضار المفاتيحِ والمحفظةِ وكلِّ ما قد أحتاجه وأنجزت بحثًا سريعًا كنت قد أوشكت على الانتهاء منه، أخذت المصعد إلى الجراج وركبت سيارتي الفاخرة - والتي ربّما لن ترى

مثلها في حياتك- وذهبت مسرعا على غير عادتي إلى مكان تلك القناة السخيفة. ولأنّي كنت أسكن بعيدًا تمامًا عن العاصمة فقد كانت الساعتان مناسبتين تمامًا كي أصل قبل موعدي بقليلٍ لأنتظره في ساحة الانتظار المخصّصة لغير العاملين بالقناة.

جلست أمام إحدى الطاولات التي كانت في بداية الغرفة، كان يجلس أمام الطاولة المجاورة شابّان يتحدثان عن الزواج وتكوين الثروة والبحث عن الوظيفة ذات الراتب الثابت وغيرها من الأمور التافهة مثلهما، عجيب أمر البشر يا رجل! قبل عشرين سنة من اليوم كنّا نسمع نفس الأحاديث السخيفة ذاتها بين الشبّان حديثي التخرج على المقاهي، الزواج وتكوين الثروة والسفر إلى الخارج، حتى في هذه الأيام والبشرية تواجه خطر الانقراض ما زلنا نتشارك توافه الحديث من الطموحات الزائفة والآمال الخائبة. خلفي كان الحائط الزجاجيُّ اللامع والمنظّف بعنايةٍ فائقةٍ حتى أنّه كان لا يبدو موجودًا بالأساس، على الطاولة المواجهة كانت امرأة في عقدها الرابع تنظر باستمرار في حاسوبها اللوحي، بدا عليها القلق بعد أن التقت أعيننا حتى أنها بدأت تبتلع بعض الأقراص قبل أن تخرج مسرعة. لم يلفت انتباهي شعرها الأشقر القصير ولا عيناها الزرقاوان ولا حتى تنورتها الورديّة القصيرة، فقط فنجان القهوة الذي جعل من كفها تحفةً فنيّةً تستحق التمعُّن والتأمُّل. دقائقُ مرّت قبل أن يأتي صبري مهرولًا بجسده العملاق وشعره القصير وحاجبيه الكثيفين كأنّهما خطٌّ غير مستوٍ رسمه طفلٌ في الرابعة على ورقةٍ نقديّةٍ مهترئةٍ تمامًا كوجه صبري الذي غزته التجاعيد. وبصوته العالي ونبرته الخشنة قال:

- هل تأخرت عليك؟ اعذرني يا صديقي فأنا......

أسرعت بعد ساعة من الحديث مع صبري إلى سيارتي فأدرتها وانطلقتُ عائدًا لمنزلي. سنذهب فجر الغد إلى موسكو حيث سأفحص الجثة بنفسي، بالطبع سأجد شيئا يوصلني بمن قتل أخي.

نظرت من سقف سيارتي-الشفاف- إلى السماء وكانت الشمس قد تمركزت تمامًا في منتصفها مرسلةً بأشعّتها الحارّة التي تحاول قطع السحب البيضاء المتناثرة يائسةً أن تخفّف من حدّتها.

ربّما لم تكن أشدَّ يئسًا من ذلك الغزال الصغير على جانب الطريق الذي يحاول المقاومة بين أنياب مجموعةِ الضباعِ التي اصطادته من بين أفراد قطيعه. بينما على الجانب الآخر كانت صحراء لا نهاية لها على مرمى البصر، بها قطعٌ من الصّبار الذي - على عكس الغزال - ظلَّ صامدًا أمام هذه الظروف التي بالتأكيد لن تترك قطيع الضباع يعيش طويلًا.

تمعّنت أكثر في السماء بعد أن أدرت نظام القيادة الآليّة وأرحت ظهري ناظرًا للأعلى، إن الشمس خارقة يا صديقي. أذكر حين كنت صغيرا تافها ألعب مع أقربائي لعبة غبية حيث يختار كل منا شيئا ليمثله، اخترت رجل عصابات واختار صبري ضابط شرطة، واختارت إحدى الفتيات لاعبة تنس محترفة والأخرى اختارت أميرة، أما ملاك فاختار الشمس، ضحكنا منه بالطبع لكني أذكر كلماته حينها. فالشمس مصدر الحياة الرئيس، إذا اشتدت قضت على الحياة، لا تراها مباشرة ولا يجرؤ مخلوق على النظر إليها حتى ولو جرؤ، فستعاقبه بحرمانه

من البصر، لا يغفل أحد أثرها حتى إذا غربت جعلت من القمر مرآة لها، وإذا طال غيابها ساد الظلام والبرد.

هل حقا ترى الشمس نفسها كما رآها ملاك؟ هل تظن انها تمنحنا الحياة؟ هذه التي قضت على كلِّ سبل الحياة في هذا المكان الذي ربّما كان يومًا من الأيام بحيرةً أو غابةً مليئةً بالحياة، من يدري هل كان الغزال سينجو من قطيع الضباع لو لم تقضِ الشمس على غابته، ومن يدري كم من الوقت سيظلُّ الصّبار نِدًّا لها قبل أن يصبح منسيًا تمامًا كهذا الطريق الذي لم يكن يرافق فيه صوت سيارتي إلّا صياح الغربان.

هذا الكون رغم تعقيده وصعوبة إدراكه إلّا أنَّ هناك حقيقةً واحدةً لا يمكن إنكارها وهي أنَّ هذا العالم سيكون دائمًا وأبدًا ضدَّ رغباتك وأحلامك، ولن يتوانى للحظةٍ عن تدمير كلِّ طموحاتك ونظراتك لحياةٍ آمنةٍ مطمئنّة.

لا أعلم بالضبط هل هذا لأن الكون لا يريد منّا أن نحيا كما نريد، أم لأننا نطمح لأن نحيا كما لا يريد الكون؟ هل طموحاتنا غير منطقية؟ لا أعلم ولا أظنك قادر على الإجابة الآن.

لم يمرّ الكثير من الوقت قبل أن أجد نفسي في الجراج، صعدت إلى غرفتي سريعًا وأعددت فنجانًا من القهوة قبل أن أستقل المصعد مرّةً أخرى لِأَصِلَ إلى معملي الذي كان يقع تحت الجراج بطابقين.

أمام باب المصعد يوجد ممرٌّ طويلٌ مضاءٌ بالأبيض المائل للزرقة وترى في نهايته بابًا كبيرًا يفتح بمسحٍ ضوئيٍّ للعين اليسرى فقط، يُفتح الباب

ليضيء المعمل بالكامل بالإضاءة البيضاء ذاتها، على اليمين توجد شاشةٌ عملاقةٌ تُظهر كلَّ رُكنٍ بداخل المعمل وفي محيطه وأمامها لوحة تحكمٍ لا تقلُّ حجمًا عن الشاشة لتتحكم بكلِّ شيءٍ بدايةً من شدّة الإضاءة ودرجة الحرارة والرطوبة مرورًا بإظهار كافَّة المتغيرات والتطوُّرات للأبحاث والتحاليل وحتى بأكثر الأمور تطرفًا وهو تفجير المبنى بالكامل.

بينما تجد على اليسار قفصًا شديد الاتسّاع بينما تجد على اليسار قفصًا شديد الاتسّاع -يمكنك أن تسميه بالسجن - يتّسع بداخله لأكثر من خمسين زنزانةٍ متوسّطةِ الحجم أحتفظ في كلٍّ منها بعيّناتٍ حيّةٍ أجرى عليها الأبحاث نبتعد قليلًا للأمام لندخل المطبخ الصغير حيث «جوليا» وهي إنسانةٌ آليّةٌ تقوم بتنظيف المعمل ورعاية العيّنات إضافةً إلى وظيفتها الأساسيّة «إعداد القهوة».

بعد عدّة أمتار معدودةٍ على أصابع اليد الواحدة تجد قفص الحيوانات التي أقوم بتجربة نتائج أبحاثي عليها قبل أن أطبقها على من في السجن -وهم بالطبع ليسوا حيوانات.

بعد ذلك نقف أمام الجزء الأهّم من المعمل، وهي الغرفة التي تحتوي على السبب الأساسيِّ لوجود هذا المعمل، وكذلك وجودي على قيد الحياة.

أحضرت لي «جوليا» عيّنةَ دمٍ لأحد الفئران التي كنت أجرب عليها شيئًا جديدًا، لم أجد شيئًا مختلفًا عن التجارب السابقة قبل أن يموت الفأر مجددًا كسابقيه.

صعدت الى غرفتي مرهقًا ولكن لا مجال الآن للإرهاق أو التعب، فأمامي رحلةٌ طويلةٌ ستكشف لي الكثير كما ستكشفه لك. دخلت غرفتي وألقيت بكامل جسدي على السرير الذي اعتاد عليَّ كما اعتدت عليه، كلّا لن أخلد للنوم الآن فلا يزال يومي طويلًا، دعني أولًا أن أصف لك غرفتي، هي كبيرةٌ لدرجةِ أنّها تحتوي حمامًا ومطبخًا صغيرًا إضافةً إلى مسبحٍ يكفي شخصين -أو كان يكفي شخصين، كما تحتوي قسمًا خاصًا بخزانة الملابس، وقسمًا خاصًا للمكتب والذي يوجد فيه جهاز الكمبيوتر الخارق الذي أحتفظ عليه بكلِّ شيءٍ تقريبًا، وأمامه شاشةٌ كبيرةٌ تعرض قنواتِ الأخبار العالميّة إلى جانبها شاشةٌ أكبر تعرض ما يحدث حول المبنى بالكامل.

طلاء الغرفة بالكامل باللون الأسود القاتم والذي بفعل الإضاءة الخافتة يتحول الى الأزرق الداكن كسماءٍ صافيةٍ في ليلةٍ اختفى فيها القمر. على الجدران صورةٌ كبيرةٌ لشقيقتي تقف بجانب أمي وأبي وأخي الأكبر، يقابلها على الجدار الآخر صورةُ «سلمى» والتي كان من المخطّط أن تقاسمني هذا السرير الذي اشتكى من قسوة وخشونة عظامي.

قمت سريعًا لأسكب القهوة التي أعدها لي «بيلي» وهو الانسان الآليُّ المسؤول عن نظافة هذا البيت والذي كانت قهوته حقًا مقرفةً لدرجة أنّني لم أشربها قطُّ. أعددت واحدةً لنفسي لأشربها قبل أن أنهي ذلك التحليل على عيّنة دم الفأر المسكين الذي مات منذ قليل، دوَّنت النتائج لكي أراجعها بعد عودتي من موسكو، لكنْ الآن عظامي تصرخ بشدّةٍ من الألم وعيناي تكاد تتورم من قلَّة النوم.

أرحت ظهري إلى الكرسيِّ ورفعت ساقي لأعلى المكتب، أشرت إلى النافذة فَفُتحت الستائر لأَجِدَ القمر قد اكتمل وانتصف في السماء، لقد تأخر الوقت ومعدتي لا تحتمل قطرةً أخرى من القهوة خاصّةً وأنّني لم أذق الطعام منذ عدّة أيامٍ لأسبابٍ لا تهمك.

بدا القمر أمامي -على الرغم من قبحه الشديد وجموده وسخافة مظهره الذي يتغزّل به الحمقى والمنافقون- هادئًا وصافيًا، مع تسلُّلِ أشعته الصامتة رفقة النسيم اللطيف بين أوراق الشجرة التي تكاد تكمل عقدها العاشر أمام منزلي. أغمضت عينيَّ لأرتاح قليلا، فتدفقت إلى عقلي سيولٌ من الذكريات والأحداث خلال الخمس سنواتٍ المنقضية، حاولت منعها بيأسٍ وضعفٍ كعجوزٍ بلغ السبعين تعبث به أيادي الفتياتِ الشاباتِ في أحد الملاهي الليليّة، فاستسلمت لها تمامًا وبدأت السدود في التصدع لتفسح المجال لتلك السيول.

(٢)

الأمس القريب

قبل خمسة أعوام

- هل ما يزال هذا الكسول نائمًا!

- نعم يا أمي، ما يزال مقلوبًا كالسيّارة المحطّمة.

- ألم يكن نائمًا طوال اليوم أمس، يا إلهي هذا يوم تخرُّجِه ولا يزال نائمًا! أيقظيه الآن حبيبتي.

- كلّا أيقظيه أنتِ فهو لا يحبُّ أن أوقظه

- جميعكم مدللون بطريقةٍ لا تصدّق!

هيا يا كسول فالساعة الآن الواحدة ظهرًا.

تحقّقت من هاتفي لأرى أن الساعة ما تزال التاسعة...

- أمّي، هذه الحيلة أصبحت من الثلاثينيات «والغريب حقًا أنّها ما تزال فعّالة « اتركيني وشأني فأنا حقًّا متعبٌ ورأسي محطّمٌ من الصداع.

- أنت متعبٌ من كثرة النوم، هيّا قم قبل أن أرشك بالماء.

- أمّي! أغلقي الباب من الخارج واتركيني وإلا سأحطِّم لك طقم الكاسات الذهبية التي لم نشرب فيها أبدًا.

- ألا يريد هذا المدلل أن يقوم ليراني؟

قمت قافزًا من السرير بمجرد أن اخترقت هذه النبرة التي لم أسمعها طيلة السنتين الماضيتين إلّا في الهاتف، لم لا وهو أخي الكبير، قدوتي الذي لم احتذِ به أبدًا لن أحكي عنه الكثير الآن، ربّما فيما بعد بعد عناقٍ طويل سألته:

- منذ متى وأنت هنا؟

- منذ أن كانت المسكينة تحاول إيقاظك، هيا سأنتظرك في الخارج لنشرب القهوة ونتحدث قليلًا.

- انتظرني انت ولا تهتم.

ألقى إليَّ بعلبة دواءٍ زجاجيّةٍ أثناء خروجه من الغرفة وتابع:

- خذ هذا سيجعلك تستفيق سريعًا وتتخلّص من الصداع.

خرج ملاك متّجها إلى الحديقة الخلفيّة، بينما أخذت كبسولةً من الدواء كي أستفيق، رأيت ليلى تقف خلف باب الغرفة ويبدو عليها الانتظار، ناديت عليها:

- ليلى، ليلى! أين أبوك؟



أجابت بابتسامتها التي تخجل الشمس أن تشرق في ظلِّها:

- ذهب باكرًا إلى عمّنا محفوظ ولا أظنّه سيعود الآن.

- انتظري، ماذا كنتِ تفعلين بجوار غرفتي؟

أجابت ضاحكةً:

- لا شيء. لقد طلبت مني أمّي أن أظلَّ هنا حتى تقوم لنتأكد أنّك مستيقظ.

رميتها بالوسادة ضاحكًا،

- أنتم تبالغون حقًا في هذا، لقد استيقظت كما ترين، ما رأيك بفنجانٍ من القهوة واذهبي به عند ملاك حتى ألحق به.

- حسنًا. « واستمرّت باسمةً بشكلٍ يجبر الشيطان على الابتسام» ولكن قد ثقل الحساب، أنا أحذِّرُك بشدة.

- سأعطيكِ الكثير من النقود عندما أكون مليارديرًا مثل ملاك، لا تقلقي.

- قُمْ من السرير أولًا ثمَّ تحدَّث عن ملاك، أيّها الكسول خرجت أمامي بينما كنت أُعِدُّ ما سأرتدي بعد أن آخذ حمامي الصباحيِّ بالمناسبة، أخي ملاك فاحش الثراء بشكلٍ لا يعقل، لو أنفق يوميًا ما ننفقه نحن الأربعة لمدة مائتي عام لظلَّ مليارديرًا. لكنّي لم أكن أحب الثروة بشكلٍ عام على الرغم من إيماني الشديد بأنّ ما من شيءٍ لا يباع أو يشترى.

دقائقٌ حتى صرت جالسًا أمام ملاك على طاولتي الخاصة في الحديقة الخلفية وأمامنا فنجاني القهوة، محاطين بشجيرات الريحان وفوقنا شجرة كافور كبيرة جدًا، ربما هي أكبر مني سنًا. ارتشفت رشفة من الفنجان لأجد أن القهوة على غير العادة كانت غريبة المذاق حتى أن وجهي ظهرت عليه آثار الامتعاض، لم يمهلني ملاك قبل أن يستهل حديثه بالسخرية منّي:

- هل كان الأمر حقًا بهذه الصعوبة؟ أربعة عشر عامًا حتى تحصل على شهادتك؟

- ربّما لم يكن صعبًا، لا أدرى، ولا أدرى حقًا ماذا سأفعل بعد أن حصلت على هذه الشهادة.

- ستمارس مهنتك مثلًا! تصبح طبيب أبحاثٍ مثلي ربّما! تتزوج وتكوِّن أسرةً صغيرةً، تفعل أيَّ شيءٍ لا يجعلك تقضي أغلب الوقت نائمًا هكذا.

- عزيزي أنا لن أكون مثلك أبدًا، وصدّقني لا أريد. لا أقصد الإهانة حقًا، ولكن أنت في موضع شهرةٍ يجعلني حقًا أخاف من أن أكون مكانك. قبل الخوض في هذه السخافات، كيف حال ندى وملك.

- بخير، «ملك» قد أتمّت عامها السابع الآن وتركتهما في لندن قبل أن أصحبهما معي غدًا إلى باريس.

- لم؟



- هذا ما كنت أريد أن أحادثك فيه.

- لا لا انتظر، أنا أعلم أنّ هناك مؤتمرًا طبيًا سيعقد في باريس، ولكن لم أعلم أنّك ستكون هناك.

- وهل سيعقد مؤتمر للكشف عن أحدث علاجٍ في العالم والذي سيحدث طفرةً في الطبِّ الحديث، ولن أكون فيه أيّها العبقري؟

- أترى؟ هذا ماكنت أقصده، وتريدني أن أصبح مثلك، عزيزي أنا أعشق النوم.

- كفاك سخفًا واسمعني بتمعُّنٍ.

أنهيت فنجاني بصعوبة حتى لا تغضب مني ليلى وأرحت ظهري للخلف ونظرت إليه بجدية -بقدر استطاعتي- لاستقبال كلماته.

- بدأت مع فريق بحثي قبل حوالي تسعة أعوام دراسة حالة نادرة، رجل أصابه طفيلي مجهري يعيش بداخل إحدى الأشجار في مزرعته، يتغذى على كل شيء قد يؤذى الشجرة سواء كان فيروس أو بكتيريا أو حتى فطريات، لا يترك شيئًا، فيجعل هذه الشجرة تنمو بشكل عجيب، وكأن الزمن يتسارع فقط في هذه الشجرة ولكن هذا الطفيلي في حالة الرجل كان فتاكًا، مات الرجل مباشرة بعد أن أخذت عينة من دمه لأدرك أن هذا الطفيلي كان يعيش بداخله.

- ثم؟



- بعد استنساخه عشرات المرات وتوفير كل الظروف البيئية له حتى أعلم في أي ظرف قد ينتشر، حقنته في أحد الفئران.

- هل مات؟

- ميتة بشعة، بعد أن ظل نشيطًا لمدة يومين بدأ الفأر في أكل جسده بطريقة مرعبة وكأنه لا يشعر بالألم.

ظهر الاهتمام وقد طغى على كل شيء بداخل رأسي الآن.

- جربته على كل شيء تقريبًا، القرود بالتحديد كانت الحلقة الأغرب والأبرز.

- كيف؟ - الإناث لا ينشط فيها الطفيلي، بل يسكن الرحم متغذيًا على بويضاتها ومن ثم ينتقل إلى الذكور خلال التزاوج وبالتأكيد كنّ غير قادرات على الإنجاب بينما الذكور كانت تنشط لديهم غرائز العنف المفرط، فمرة أجد قردًا يأكل زوجته، وآخر يقتل صغاره ويظهر عليه الانتشاء، وآخر يأكل أطرافه.

- ولِمَ قد يحدث هذا؟ ما الذي قد يتغذى عليه الطفيلي ليجعلهم هكذا؟

- هنا كانت الجزئية التي اختلفت مع زملائي بتفسيرها، ظننا في البداية أن القرود تفقد جزءًا في الدماغ هو المسؤول الرئيسي عن الإدراك، فلا يدرك القرد أنه إن أكل ذراعه سيشعر بالألم لكن ما رأيناه أن هذه الكائنات لا تشعر بالألم على الإطلاق، فالأمر هنا يتخطى الإدراك.

- إذًا أكانت القردة تشعر بالألم أم لا؟ لا أفهم شيئًا يا رجل!

- بلى، بتطبيق مسح دماغي لوظائف المخ كانت القردة تشعر بالألم عندما تتعرض لأي من مسبباته، لكنها كانت تتصرف على خلاف ذلك.

- مهلًا، كان القرد يتألم بينما يأكل ذراعه... لكنه لم يُصدر أي تصرفات تدل على أنّه يشعر بذلك الألم؟ - بالفعل، إن لامست يدك الماء الساخن تسحب يدك تلقائيًا، ذلك لأنـ....

قاطعته بتأففٍ شديد:

- ملاك، ربما استغرقت دهرا في الكلية لكنّي طبيب أيضًا، يمكن لأي شخص البحث عن تلك المعلومات.

- معذرة يا أعظم أطباء العالم، ما أقصد قوله هو أن المصاب يشعر بالألم، لكن دماغه لا يرسل الإشارات الصحيحة للاستجابة لذلك الشعور، فيشعر القرد بالألم لكنّه يستمر بأكل ذراعه، أو يبدأ في الرقص، أو يدخل في نوبة من النشاط حتى يفقد الوعي ويموت. ومع تشريح أدمغة أولئك المساكين، خمّن أين وجدنا أكبر نسبة لتجمع ذلك الطفيلي!

- لا أعلم، ربما أعضاؤهم التناسلية؟

ضحك ملاك بصوتٍ عالٍ وتابع...

- يا فتى اشتقت حقا لسخافاتك تلك.

- وكيف انتقل هذا الطفيلي إلى الرجل؟

- طفرة جينية بالتأكيد، لكن من المفترض ألا ينتقل من الحيوانات أو النباتات إلى الإنسان، فقط يجب أن يدخل الجسم مباشرة بالطرق التي تعرفها، الفم والدم والاتصال الجنسي.

- هذا غريب.

- ومرعب كذلك، هذا الطفيلي يتغذى على أنشط خلايا في الجسم، يقوم برصد كل التحركات داخل المضيف، يتغذى ويتكاثر وينتقل من دون رادع تخيل معي مريضًا بالسرطان، تقوم الخلايا السرطانية بالانتشار، ثم يأتي هذا الطفيلي ليتغذى عليها، كلما نشطت وتكاثرت، سار معها الطفيلي خطوة بخطوة.

- وبهذا يزيد عمر مريض السرطان؟

- بالفعل، فهو لا يبدو على الإطلاق كما لو كان مريضًا، فالطفيلي قام بعمل الجهاز المناعي وقضى على الخلايا قمت بالتفكير قليلًا بينما كان «ملاك» يرتشف آخر رشفة في الفنجان وتبدو عليه النشوة التي تظهر على وجه المحامي الذي فاز بقضية القرن، ثم تابع:

- وليس مرضى السرطان فقط، بل كل شيء تقريبًا، يهاجمك فيروس نشط، يقوم الطفيلي بالقضاء عليه ثم انتهت القصة.

- وماذا بعد أن يقضى الطفيلي على الفيروس، علام سيتغذى؟

- هنا تكمن المشكلة الكبرى التي ظلت تمنعني من الكشف عنه.

- أفهم من ذلك أنه سيبدأ بالتغذي على الخلايا النشطة في الإنسان؟

- تماما كما حدث مع القرود، مع فروقات بسيطة للغاية، ربما يكون البعض أذكياء جدًا فيدمر أدمغتهم، والبعض أقوياء فيدمر عضلاتهم، لذلك عدّلت نسخة خاملة من هذا الطفيلي لا تتغذى على خلايا الجسم بمثل سرعة الطفيلي الأصلي.

- لتستخدمه كلقاح ربما؟

- بالفعل، بمجرد أن يقضي الطفيلي على الأمراض بداخلك، تأخذ الطفيلي الخامل، لكن بالتأكيد هذا ليس حلًا نهائيًا.

- أرى ذلك، هل جربته؟ - بالتأكيد، لم يكن الوضع مطمئنًا بالشكل الكبير، لكنه مبشرٌ إلى حد ما، لم تَمُت القرود على الأقل أو يأكل بعضها بعضًا... أنهى فنجانه و تابع ... تتأثر أدمغتهم ولكن بشكل طفيف، تمامًا كما كان في القردة الّتي تشعر ولكنها تستجيب بردود أفعال مغايرة للطبيعى.

- أكاد أحسد أولئك القردة حقا!

- لست بحاجة لذلك يا عزيزي، أنت عديم الإحساس على كل حال. ضاحكا قال ملاك.

اعتدلت في جلستي وجحظت عيناي حتى كادتا تخرجان من مكانهما....

- بالطبع ستراني عديم الإحساس، لكنّك يا أخي طوّرت سلاحًا فتّاكا في غاية الروعة.

- وما الروعة في ذلك؟

- انظر إلى كم الحمقى الذين يمكنك أن تتخلص منهم، الملايين من الحمقى والأغبياء والفقراء عديمي الفائدة.

- حسنًا فلنبدأ بك إذا.... قالها بينما لم يستطع منع ضحكاته.

- بالطبع سأكون سعيدًا يا رجل.... شاطرته الضحكات قبل أن أتابع .... هل هناك من يعلم عن هذا الطفيلي حتى الآن؟

- للأسف نعم، ويُنتظر مني أن أقدمه للعالم غدا في باريس كعلاج دائم للسرطان فقط، لكن لاتجعل أحدًا على الإطلاق يعلم ما تناقشنا فيه.

- لا تقلق، اعتبر أن أي أحد لا يعلم شيئًا عن هذا الأمر.

- قبل أن أنسى، خذ هذا.

- ما هذا المفتاح؟

- معملك الجديد، ليس بعيدًا من هنا.



- أنت تمزح حقًا! الناس يُهادون بعضهم بعطور رديئة، ملابس شتوية أو ربما حذاءً غالي الثمن، وأنت تهديني معملًا؟ يا لك من ثري!

- عزيزي أنت خليفتي في الملاعب، صحيح أن المعمل ليس فريدًا من نوعه لكنه سيعجبك.

سألني عن سلمى وبالطبع تنصّلت من الإجابة، بالتأكيد سنتزوج ولكنّي لا أرى أنه يناسبني أن أكون ربَّ أسرةٍ حاليًا، أصرخ في أطفالي الأغبياء حين يرسمون رسمة غبية على الجدران، أتشاجر مع زوجتي ليل نهار حتى يُصاب أطفالنا باضطرابات صحّية ونفسية تجعل منهم قادة العالم في المستقبل ليخرجوا مع تلك المذيعة ليشردونني على شاشات التلفاز. قطع ملاك تفكيري بردوده اللاذعة:

- ومتى ستكون قادرًا على تكوين أسرة؟ أنت بعمر الاثنين والثلاثين، هل ستنتظر حتى تتم الأربعين أو ربما الخمسين؟ وهل ستنتظر المسكينة؟

- لا تشغل بالك بي يا عزيزي، فأنا أكثر الناس ارتياحًا بما أنا فيه....

قاطعتنا ليلى:

- هل أعجبتك القهوة يا عزيزي؟

أجبت:

- بها بعض المرارة كأنك وضعتي بها دواءً للسعال أو....

قاطعتني:

- انا اسأل ملاك، ليس أنت!

ضحكوا مني قليلًا قبل أن يثني ملاك على قهوتها وأكمل:

- أذاهبة إلى الخارج؟

- نعم، لدينا حملة لبناء أسقف في إحدى القرى، وسنكمل العمل بعد يومين على الأكثر.

- هل تحتاجين للتبرع؟

أومأت برأسها بخجل شديد

- تفضلي يا عزيزتي.

- وأنت؟ ألن تتبرع ولو لمرة واحدة في حياتك؟ سألتني متهكمة وهي تعلم موقفي من أشباه البشر.

- لو جئتِ قبل دقائق لعرفتِ بم قد أتبرع لأولئك الملاعين.

حدّق فيَّ أخي بغضب مُفتعل مُحذِّرًا إياي من البوح باكتشافه لشقيقتنا، حاولت تدارك الموقف بأن تابعت: - فكرى في الأمر يا فتاة! لماذا أدفع أموالا لأشخاصٍ سيصرفونها في غير محلها! أو لماذا قد أبنِ لهم سقفًا؟ هذا ليس دوري ولن يكون أبدًا دوري.....



- ولكن ماذا لو كنت أنت مكانهم!!

- أنا لست مكانهم، وحقًا لو كنت كذلك لما انتظرت إحسانًا من أحد.

تدخل ملاك قبل أن تقذفني ليلى بالفناجين الفارغة - عزيزتي اذهبي حتى لا تتأخري، ولا تترددي لحظة في طلب ما تحتاجين مني خرجت الصغيرة مُتأففة بعدما شَكَرَتْ ملاك على قلبه الحنون ناظرة إليَّ بغضب حتى كدت أسمع صوت أسنانها تشاركت الضحكات قليلًا مع أخي قبل أن يعتذر مني لضيق وقته، أخبرني أنّه ذاهب لقضاء بعض الزيارات والمهام المملة قبل العودة إلى لندن لاصطحاب أسرته إلى المؤتمر غدا في باريس دقائق بعد أن ذهب «ملاك» كانت كافية لتتصل بي سلمى، مُذكّرة إيّاي بموعدنا والذي كان من المفترض أن يكون بعد الظهيرة ولكن كعادتي، نسيت.

***

وقفت أنتظر «سلمى» في المكان الذي كانت تحبه نظرا لتفاهتها - كعادة معظم الفتيات- والذي كان مطعما فاخرا يمتلكه أحد أفراد عائلتي حيث صارحتها بمشاعري منذ سنواتٍ طوال.

- عزيزي! لا أصدق أنّنا أمضينا سويًا كلَّ تلك السنوات حقًّا - بالفعل، هذه مدةٌ من الصعب تصديقها كم أمضينا سويًا؟ ... سألت وأنا أصطنع البلاهة - خمسة عشر عامًا يا وقح... ردّت بعبوس - على مهلك فأنا أمازحك يا ذات الشفتين... مبتسمًا غازلتها حتى احمّرت وجنتاها.

- ألا ترى أنّه حان الوقت لنتزوج؟

- وألا ترين أنّ ثلاثة عشر عامًا كفيلةٌ تمامًا لئلّا تسأليني مثل هذا السؤال؟

- ومتى سيحدث ذلك؟ أجبني حتى لا أدخل شوكتي هذه في .....

- في ماذا؟ تهذبي يا فتاة.... قاطعتها ضاحكًا.

- في أنفك أيّها الوقح. ضاحكةً أردفت.

- حسنًا، أعتقد أنّنا سنتزوج هذا العام، فقط انتظري حتى ينهيَ ملاك جولته ويعود مرّةً أخرى ونقيم الزواج.

- بهذه البساطة؟ تبًا لك! خمسة عشر عامًا وتعرض عليّ الزواج الآن.

- حبيبتي لقد أصبحنا شائخين بالفعل. تظنين أنّني كنت قادرًا على ذلك من قبل؟

- كلّا لا أظنُّ. أنا واثقةٌ أنّك حتى اللحظة لا تستطيع تحمُّل المسؤولية.

- لم أقل شيئًا، أليس كذلك؟ ... رددت باسمًا - دعنا من هذا الآن، ماذا عن «ملاك»؟ كنت تقول شيئًا عن مؤتمرٍ غدًا - بلى، سيكشف عن علاجٍ جديدٍ في باريس غدًا في مؤتمرٍ عالميٍّ - وأنت يا «بطلي» ألن تكشف عن شيءٍ في حياتك؟ ... سألت متهكّمة.

- ألم أكشف لك من قبل؟



لم أتمالك نفسي فضحكت قبل أن تضربني بعنف على كتفي محاولةً كبت ضحكاتها التي انتبه الناس لها فقاطعتها:

- لقد جاء اليوم من لندن بالمناسبة وأهداني معملًا بمناسبةِ تخرّجي.

- تمزح! لو لم يكن متزوجًا لعرضت عليه الزواج بالفعل، يا لخيبة أملي - ضاحكًا أجبتها - سيخيب أملك مجددًا اطمئنّي - هل رأيت ذلك المعمل بالفعل؟ - كلّا، ما كنت لأذهب بدون صاحبة الجلالة، سآخذك بعد قليل لا تقلقي.

سادت لحظاتٌ من الصمت بينما كانت النادلة تحمل الأطباق الفارغة، ستحضر لي القهوة أعلم ذلك، انا لا أذكر حتى متى كانت آخر مرةٍ طلبت فيها شيئًا هنا.

- لقد كَبِرْتَ يا عزيزي، واجتاحت التجاعيد وجهك.

- كفّي عن مغازلتي، لقد احمّرت وجنتاي بالفعل.... متهكّمًا أجبتها.

- أتعلم! انا حقا أعشق تجاعيد وجهك، طيلة السنوات الماضية وأنا أراك تكبر وأكبر معك....

دمعت عيناها وابتسمت حتى تزيّن وجهها الجميل بابتسامتها الأجمل. أمسكت يدها ونظرت في عينيها الممتلئتين بالدموع، قبل أن تستكمل....



- ما زلت أذكر يوم التحقتُ بالكلية وشاهدتك تقف وسط أصدقائك، مرَّ على ذلك اليوم الكثير حتى أنَّ ذقنك الحمراء التي أعشقها بدأت تغزوها شعيراتٌ بيضاءُ أكثرُ أناقةً وجمالًا، أذكر كذلك كيف كنتَ تضحك بصوتك الجهوري الملفت وهيئتك المغرية وصدرك العريض وقامتك الممشوقة وحاجبيك الذين زينا جبهتك البيضاء انظر لنفسك الآن ...... تابعت ضاحكةً دون أن تتوقف دموعها...... لم تتغير فما زلت تافهًا وغبيًا كما كنت - تافهًا وغبيًا؟ يا لك من وقحة بحقّ...... قلت ذلك ولم تفارق البسمة وجهي.

- حسنًا لنتوقف عن هذا، متى سيقام المؤتمر؟

- أيُ مؤتمر؟

- مؤتمر أخيك!

- صحيح، غدًا في تمام التاسعةِ مساءً - وماذا ستفعل حتى ذلك الوقت؟ - لا أعلم، ربما سأنام حتى الغد - ومتى سنذهب لمعملك؟ أنا حقًا أحترق من أجل رؤيته - نعم نعم سنذهب حالما تنكسر الشمس قليلا بعد الكثير من توافه الحديث وسفائه القول قمنا لنرى ذلك المعمل - ها هو ذا تفضلي يا ذات الجلالة.... مبتسمًا أشرت لها بالدخول - يا إلهي! هل حقًّا أهداك «ملاك» هذا! يا لسوء حظّي...

متهكّمةً نظرت إلي - صدِّقيني لو كنت مكانك لقلت الأمر ذاته دخلنا وأغلقتُ الباب وبينما كنّا نتجوّلُ في الأرجاء استخدمت فتاتي الحاسّة

السادسة التي وهبها الله لكلِّ فتيات الكوكب - ما هذا؟ ألا يبدو طلاء هذه الغرفة غير متناسقٍ مع باقي الغرف؟

- أين؟ أعتقد أنّه كسائر الغرف، لا أرى اختلافًا!

- تعال تعال، انظر هنا.

- يا إلهي ما هذا!

- رأيت؟

- كلّا يا تافهة، إنّه الأبيض ذاته - أمْعِنِ النظر أيّها الأعمى! كيف لا ترى الفارق؟ هذا اللون هو درجةٌ من درجاتِ الأبيض وليس الأبيض ذاته في سائر المعمل! - صغيرتي أنا لا أرى أي فارقٍ! وحتى لو كان هنالك فارقٌ فما المهم في ذلك! - سأخبرك، هذا الجدار مثلًا به درجتين من الأبيض، وتبدوان متناسقتين للغاية بينما ذلك الحائط هناك هو درجةٌ واحدةٌ من الأبيض، والحائط المقابل له هو الدرجة الأخرى كفاك بلاهةً ولا تنظر لي هكذا!

لم أكن أنصت لها على الأطلاق بينما كانت تحاول شرح الفارق بين الأبيض وذلك اللون الذي لا أعرف كيف ينطق اسمه، بل كنت أطيل النظر في عينيها الزرقاوين كأمواج بحرٍ هادئٍ تشقّها سفينةٌ في ظلماتِ الليلِ، وشفتيها الممتلئتين كحبّتي كرزٍ شديدتي الإحمرار.

لم آبه لهرائها عن الألوان فاعتصرتها بين ذراعيَّ لتشهق شهقةً كادت أن تخطف أنفاسي معها، وشعرت بدقات قلبها الصغير يرتجف من

المفاجأة، فتشبّثت بي وهدأت أنفاسها حتى شعرت بقطراتٍ ساخنةٍ تسيل على صدري. ربّتُّ على كتفها بحنانٍ على عكس شدّة التفاف ذراعيّ حول ضلوعها، فما كان لجسدها الصغير إلّا أن يرتبك بين قسوة ذراعي الملتفّة من حولها، وبين حنانٍ التمسته في دفئ صدري.

- خمسةَ عشرَ عامًا أيّها الغبي، خمسةَ عشرَ عامًا وأنا أحلم باليوم الذي أراك فيه في مكان مثل هذا.

لم أرد حقًّا أن أسكتها لكنّي كنت بحاجةٍ لمثل هذا العناق، فتركتها بين ذراعيَّ لتقول ما تشاء، بينما كنت حقًّا أشعر بألمٍ يجتاح رأسي.

همست في أذنها بلطفٍ

- صغيرتي! يجب أن نذهب، فكما تعلمين كلما تعانقنا هكذا لا تسير الأمور لنحوٍ جيد.

- قل لنفسك! حسنًا ولكن ألن ترِيَني هذا الطابق؟

- لم أتفحّصه، إنّه البدروم! بالتأكيد سأجد فيه شيطانًا مثل ذلك الذي يمتلك مفاتيحًا في أصابع يديه كأفلام الرعب.

- كفَّ عن المزاح، هيا تعال معي.

- حسنًا يا لك من طفلةٍ مدلّلةٍ أخذت يدها ونزلنا سويًّا للطابق السفليِّ - والذي كنت مرتعدًا من نزوله - ها هو مفتاح الكهرباء، بالتأكيد لن يعمل - لقد أضاء، جبانٌ أنت يا صغيري - حسنًا حسنًا كنت فقط

أمزح، من البديهيات أنّ الطابق السفلي إضاءته معطّلةٌ، وإن لم تكن كذلك فستتعطّل عاجلًا أم آجلًا بينما نحن في الخارج على عكس ما كنت أبديه لها من خوف فقد كنت حقًا لا أريد إلّا النوم في هذه اللحظة - عزيزي انظر هناك! - يا إلهي!

إنّها لوحةُ الكهرباء... «أحب حقًا اصطناع البلاهة أمامها»

- وما المدهش في لوحة الكهرباء يا سخيف، أنا أقصد ذلك الباب بجوارها.

كان يبدو باباً عاديًا، لكنّه بلا مقبضٍ أو مكان للمفتاح، أخذتني من يدي للباب الآخر المقابل له - والذي كان له مقبضٌ بشكلٍ طبيعيٍّ - ويا لجمال ما رأيت بالداخل، غرفة أحلامي وكأنّ "ملاك» كان يعرف أوصافها، طلاءٌ أسودُ قاتمٌ، إضاءةٌ صفراءُ خافتةٌ، سريرٌ كبيرٌ وثلاجّةٌ تتناسب مع حجمه، حوض استحمامٍ كبيرٍ يتّسِعُ لشخصين.

- ألم أقل لكِ لابدَّ أن نذهب الآن. مبتسمًا قلت وأنا أمسك بيدها.

- حسنًا ربّما يمكنني البقاء لبعض الوقت. قالت بينما كانت تقترب من وجهي لأرى في عينيها نظرة كانت أبلغ من مائة كلمة.

بعد ساعاتٍ ليست بالقليلة استيقظتُ من نومي لأجد صغيرتي تغفو فوق صدري، وشعرها الطويل كذيل فرسٍ أنهكه السباق ينسدل فوق ما تبقّى من جسدي، كانت جميلةً حقًّا خلال نومها كما كانت أثناء نشاطها، همست في أذنها قبل أن أطبع قبلة فوق جبينها شديد

البياض المكتسي بالحمرة الخفيفة، كزهرةٍ تفتّحت بعد ليلةٍ طويلةٍ انتظرت فيها ضوء الشمس....

- صغيرتي، هيا بنا لقد تأخرنا.

- تبًا لك أنا لا أَمَلُّ منك.

- أعلم ذلك، أعلم تمامًا.

- حسنًا ابتعد يا سخيف، فلدي عملٌ صباحًا، لست عاطلةً مثلك، لا انتظر، لقد أصبح لديك عمل كذلك. قالت مبتسمةً بينما كنّا نستعد للخروج.

- لا. لا أظن ذلك، لن أفتتح هذا المعمل قبل شهرٍ على الأقل.

- وكأنّني سأتعجب، حسنًّا هيا بنا.

أوصلتها إلى حيث كانت تعيش بمفردها، نعم هي وحيدةٌ تمامًا، والداها يعيشان في أستراليا بينما تلك الغبيّة تمسكت بي في هذا المكان، لم يكن ذلك قرارها الغبي الأول، كانت تحبُّ حقًّا مساعدة من لا يستحقّون المساعدة. انظر هناك! هذه عيادتها الخاصّة، أنفقت من الأموال كثيرها حتى تفتتح عيادةً لعلاج من يعاندون مصيرهم، بالطبع لا تأخذ أموالًا منهم، فهم لا يملكون إلّا الجهل - بجانب فقرهم بالطبع.

عدت للمعمل فأخذت حمّامًا سريعًا قبل أن أعود إلى البيت، كان الليل قد ابتعد قليلًا عن الانتصاف وغدًا هو اليوم المنشود الذي سيحتل به «ملاك» مجال الطب الحديث في العالم كان والداي نائمين بينما كانت «ليلى» في تلك الحملة الغبيّةِ لبناء الأسقُفِ لبعض الطفيليّاتِ البشريّة، مهلًا هذا يبدو لك وقحًا، أليس كذلك؟ ربّما، لكن صدّقني هذه هي الحقيقة.

أعددت فنجانًا من القهوة تفوّقتُ به على نفسي- لكنّي لم أكن لأتفوّق أبدًا على «ليلى» في هذا- وجلست متابعًا للأخبار المحيطة بهذا المؤتمر. يا إلهي رأسي يكاد ينفجر من الصداع، أشعر كأنّه وُضِعَ عنوةً بين مطرقةٍ وسندانٍ كلاهما من الفولاذ. لقد أعطاني «ملاك» عبوةً بها بضعُ أقراصٍ للصداع، أين وضعتها؟

ليست تحت الوسادة كما لم تكن فوق المكتب، ربّما في الشرفة، يا إلهي ليست هنا أيضًا! نعم نعم غرفتي تبدو كقبوِ منزلٍ هُجِرَ لعشراتِ السنين أعلم ذلك. أخيرًا ها هو.

في ذلك المكان السحريِّ الذي أجدَفيه كلَّ ما أضعته، أتذكر كيف وجدت مفتاح السيارة وكذلك مشروع التخرج بالإضافة إلى الكثير من الملابس التي اتهمت أمّي بهتانًا وزورًا بأنّها استخدمتها كأقمشةٍ للمطبخ، أو أنَّ الحمقاء الصغيرة أعطتها لتلك الجمعياتِ الشريرةِ لتتبرع بها لأولئك الفقراء - لم أقل نفايات أو فطريّات كما لاحظت لأنّي مرهفُ الحسِّ وتافهٌ مثلك تمامًا رأيت؟

نعم يا عزيزي إنّه ذلك المكان الذي لطالما فقدت به ولّاعتك وعلبة سجائركَ الرخيصة وملابسك الداخلية، إنّه تحت السرير. ربّما إن بحثت قليلًا سأجد مستقبلي كذلك، كانت تلك مزحةٌ سخيفةٌ أعلم. ابتلعت قرصًا آخر مع فنجاني الذي انتظرني لدقائق، وجلست في الشرفة متابعًا الأخبار حول مؤتمر الغد على حاسوبي الخاص.

«عالمٌ مصريٌّ لا يملُّ من تحقيق المستحيل، ربّما هو علاج لنقصِ المناعة أو التهاب الكبد الوبائيِّ أو حتى السرطان، شاهد قصَّةَ حياةِ عالمٍ مصريٍّ يعلن عن مؤتمرٍ يكشف فيه عن اكتشافٍ سيغيِّر الطبَّ الحديث للأبد، تعرَّف على حياةِ العالم المصريِّ «ملاك محمد»......

يبدو هذا عنوانًا مغريًا، هؤلاء الصحفيون هم أسوأ شيءٍ في الحياة -بعد القهوة الممزوجة بالسّكر- يختلقون القصص فقط ليجعلوا الحمقى أمثالنا يقرؤون، كم مرّةً دخلت على موقع نشرٍ «شاهد قبل الحذف ماذا فعلت الفنّانة بعدما وجدت زوجها يخونها مع لاعبة كرةِ سلّة» فتدخل لتجد الخبر يتحدث عن انفجار بالوعةٍ في شوارع المكسيك.

«ملاك محمّد عيسى الألفي، طبيبُ أبحاثٍ مصريٍّ من مواليد عام تسعمائة وسبعة وثمانون بعد الألف لوالدين مصريّين يعملان في مجال الطبِّ، فالوالد جرّاحُ أعصابٍ والوالدة جرّاحة قلبٍ، نشأ «ملاك» وإخوته نشأةً ميسورةً، فالوالد «محمّد» وزوجته «هند» كانا مالكين لمستشفىً استثماري بمنطقةٍ راقيةٍ في محافظة القاهرة.

ولأنَّ العائلة طبيّةٌ بالكامل فقد تخرّج كلٌّ من «ملاك» وأخوه في كليّة الطب بينما ما تزال شقيقته الصغرى تدرس في الكليّة.

على عكس «ملاك» الذي تخرّج وحصل على شهادتي الماجستير والدكتوراه قبل أن ينتصف عقده الرابع، عانى شقيقه الذي لا يمتلك عبقريةَ ولا طموح أخيه ليتخرج في نفس الكليّة. سافر «ملاك» ليُتِمَّ دراسته في الولايات المتحدة ليحصد هناك جوائزَ تفوُّقٍ ومديحًا من كلِّ أساتذته، وبسبب نبوغه النادر والفريد من نوعه إضافةً إلى أسرته شديدة الثراء عُيِّن كباحثٍ في جامعةٍ مرموقةٍ، وتدرَّج بالمناصب حتى حصد أعلى درجةٍ في تلك الجامعة بالتوازي مع افتتاحه لعدّة مستشفياتٍ في عدّة ولايات يا رباه! من كتب هذا المقال، أمّي؟ أعتقد أنّ هذا يكفي، ربّما أنا فاشل لتلك الدرجة التي جعلت موقعًا أمريكيًا يقول هذا اثنتان وثلاثون عامًا، هذا رقمٌ ليس بالهيّن أبدًا، ربّما أكبر إنجازٍ حقّقته لهذه البشرية هي أنّني لم أفعل شيئًا. تزامنت الرشفة الأخيرة من فنجاني مع ارتخاء جسدي بالكامل فوق الأريكة.

(٣)

المؤتمر

- صبري، أين أنت الآن؟

- بانتظارك في صالة الانتظار، لا تتأخر.

- حسنًا أنا في طريقي.

كنت أشعر خلال طريقي بكراهيةٍ طغت على أيِّ شيء، سألتقي بذلك الحشرة أخيرًا، كم كنت أتمنى أن أجده حيًّا حتى أشفي غضبي منه، لكن لا بأس، ربّما أجده ممزّقًا أو محروقًا او مشوّهًا، ربّما يشفي ذلك غليلي.

وصلت قبل موعدي بدقائقَ كانت كافيةً لأترجل من السيّارة وأصل لصبري في صالة الانتظار.

- تمامًا في موعدك، كيف حالك؟

- هل أمامنا وقت؟

نعم، خمسَ عشرة دقيقة... بتأفُّفٍ ردَّ صبري

- يا فتى، فنجانًا من القهوة بدون سكّر، وأسرع قليلًا.

- لا تحضر لي شيئًا، فقط أسرع حتى لا نتأخر.

- صبري، كيف تعرَّف رجالُكَ على جثّته؟

- لم يفعلوا، لكنَّ أحد المزارعين وجد جثّةَ رجلٍ في عقده الرابع مصابةٌ بقطعٍ رأسيٍّ في الدماغ يحمل معه صورةً عائليّةً لأخيك.

- لم برأيك قتلوه؟ هل لديه ما يهمهم لهذه الدرجة؟

- لا يهم، قالها صبري بينما يتناول كوب الزنجبيل الساخن من يد مُساعده الذي لا أذكر له اسمًا، ارتشف رشفة كمحرك السيارة القديمة قبل أن يسألني:

- ألم يترك لك ملاك شيئًا نستدِّلُ منه؟ بالتأكيد كان يعرف من يتربصون به.

- بالتأكيد كان يعرفهم، لكنّك تعرف ملاك أيضًا، كان ليموت على أن يتسبّب في مقتل غيره. وقد حدث.

- حسنًا، هيا بنا.

ذهبنا لسلّم الطائرة والتي كانت مخصّصة لكبار رجال الأعمال فقط، فقط أنا وصبري وبضع عشرة أشخاص، جلس كلٌّ في مقعده، حاول صبري أن ينام بينما استغرقتُ في التفكير فيما سأفعل عندما أصل لموسكو.

لم يكن وقتًا مناسبًا على الإطلاق حتى أتذكر سلمى، لكنَّ هذا البدين الجالس هناك كان يداعب حبيبته بنظراتٍ أشعرتني بالغثيان، أو الغيرة

والحقد. كان من المفترض أن تكون سلمى معي الآن، نداعب أطفالنا الأغبياء الكسالى، لكنّ ذلك لم يحدث.

أغمضتُ عَيْنَيَّ على درايةٍ أنّني لن أخلد للنوم، لكن لم أرِدْ أن أرى ذلك الأحمقَ يغازل حبيبته أمامي. الأبله، يظنُّ نفسه حقًّا سيحصل عليها في النهاية! سأتركه ليعرف مصير حبه السخيف هذا ولن أشغل بالي به.

أنا لا أمزح حسنًا؟ لديَّ ما هو أهمُّ بكثيرٍ من تلك التفاهات. لا تفعل ذلك أيّها الغبي!

- صبري قبل أن نقلع، ما زال لديك القليلُ من الأقراص المنومة، أليس كذلك؟

- بالتأكيد، ولكن ألم يَنْهَكَ الطبيب عنها؟ - صبري، أنا الطبيب أعطني القرص ولا تكثر معي فأنا لست بمزاجٍ جيّدٍ كفاية - هاك الشريط كله ستكون رحلة طويلة - من اللطيف أنك تعلم ذلك حقا، لا تزعجني إذاً.

أنا لست غيورًا بالمناسبة، لا تظنَّ أنّي أشعر بشيءٍ من الحقد تجاه هذا السخيف، إيّاك! سأنام الآن وأترك لك الوقت الكافي لتستمتع بالنظر خلال النافذة.



يوم المؤتمر

- هيا استيقظ لقد اقترب النّهار على انتصافه.

- حسنًا يا أمّي، هل بإمكانكِ إعداد القهوة لي حالما أقوم؟

- كلّا كفاك كسلًا، لديّ ما هو أكثرُ أهميّةً من قهوتك.

- هل جاءت ليلى من رحلتها الغبيّةِ تلك؟

- ستصل خلال ساعة، وسيأتي أبوك ايضًا قبل المؤتمر بساعتين.

قمت من السرير على مضض، يلتهب المنزل بالكامل في أيام كهذه - والتي كانت مرتبطة حصريا بملاك فقط - لن أحتمل البقاء في البيت هذا اليوم، قررت الذهاب لمعملي الجديد لعلّي أنعم فيه ببعض الهدوء أخذت حمّامًا باردًا واتصلت بسلمى لأقابلها في المعمل، ربّما سنشاهد المؤتمر سويًا بعد أقّل من نصف ساعةٍ كنت في المعمل بمفردي، بالطبع فسلمى أيضًا لديها عملٌ تنجزه. ربّما يحتاج المكان هنا لبعض الديكورات التي أفقه فيها مثلما أفقه في اللغة الصينيّة، حسنًا كلُّ ذلك لا يهم، ما أحتاجه الآن هو؟

أحسنت، فنجانُ القهوةِ، لقد تأخّرَ اليوم قليلًا. لكنّي سأعتاد على ذلك، يبدو أنّني سأعيش في معملي لفترة. أعددتُ فنجاني وجلست أستمتع به بينما كنت أتابع الأخبار حول المؤتمر، شعرت لوهلةٍ أنّني أريد أن أتّصل بملاك، ولم أكّذب شعوري ففعلتُ للتّو.

- هل أحْلُمُ حقًّا؟ ندى اقرصيني من شحمةِ أذني لقد اتصل بي أخي لأول مرّةٍ منذ عامين.

- إذا لم تتوقف عن مزاحك السخيف هذا سأقرصك من منطقةٍ أخرى.

- يا لك من وقح... ضاحكًا أردف - أريد فقط أن أُعْلِمَكَ أنّني فخورٌ بما وصلت إليه وستظلُّ دومًا مثليَ الأعلى... قلت على مضضٍ فأنا لم أعْتَدِ التصريح بتلك المشاعر - ندى اقرصيني أرجوكِ .... قال بخجلٍ شابته البهجة.

- لن تتوقّع أنّني أكلِّمُكَ من المعمل، أليس كذلك.

- حقًا؟ بهذه السرعة، وهل أعجبك؟

- بالطبع، إنّه رائعٌ، حتى سلمى أعجبت به كثيرًا.

- سلمى، كيف هي بالمناسبة.

- أرسلت لك السلام معي، لا تنسَ أن تحضر زفافنا بعد شهرين.

- يا إلهي، هذا كمٌّ لا يعقل من البهجة في مكالمةٍ واحدة قال بنشوة.

- هل ملك بجوارك؟ أريد التّحدث إليها.

- هي تسمعك الآن، ملك قولي شيئًا لعمِّك، تقول إنّها تحبُّك واشتاقت إليك.

- حسنًا لا أريد أن أطيل عليك أكثر من ذلك، انتظر انتظر كدت أنسى.

- ماذا تريد، بسرعةٍ قبل أن أتأخر.

- كيف عرفت مواقع الأخبار الأمريكية أنّني استغرقت كلَّ هذه السنوات لأتخرَّج؟ سألتُ وأنا أضحك - ضحك قليلًا ثمَّ أردف.... أرسل تحياتي لكلٍّ من ليلى وأبوينا، سأغلق هاتفي لأنَّ أرقامًا كثيرةً تحاول التحدُّث إليَّ ولن أتمكّن من الخلاص منهم.

- حسنًا. فليوفقك الله يا عزيزي.

أغلقت الخطَّ وانتظرت قليلًا حتى وصلت سلمى

- كمِ الساعة في يدِكِ يا آنسة؟

- ها ها ها. ظريفٌ حقًا...

- حسنًا هيّا... احتضنتها لثوانٍ ودخلنا سويًا.

- ابتعد أنا متعبةٌ من العمل أيّها العاطل... دفعتني بقوةٍ مصطنعةٍ و تابعت ... ألديك أيَّ أقراصٍ للصداع، لقد نسيتُ أن أجلب من الصيدليّةِ في طريقي - أحضرت لك هديةً بمناسبة المعمل أغمض عينيك.... قالت بعدما ابتلعت قرصًا من من أقراص الصداع خاصّتي.

- عزيزتي! لقد كبرنا على هذه التفاهات.

- هيا قبل أن أغيِّرَ رأيي.



- أشكرك حبيبتي على هذه الهديّة التي لا تقلُّ جمالًا عن ابتسامتك. احتضنتها وقبّلتُ جبينها بينما قاطعتني.

- هيّا، سأعدُّ لنا فنجانين.

- ولِمَ سَتُعِدّينَ لنفسك؟ قلت محاولًا كتم الضحكة، قبل أن يغوص مرفقها في كليتي اليسرى.

- حسنًا، هيّا بنا... قُلْتُ متألّمًا.

وبينما كنّا نذهب للمطبخ عاودني الشعور بذلك الألم مرّةً أخرى. الصداع الذي اعتادته رأسي في اليومين المنقضيين، فحاولت أن أقاوم وقلت

- هيّا سأعلِّمُكِ سرَّ تحويجة القهوة الخاصّةِ بي، تَعَلَّمِي فتحت أحد الأدراج وكنت متأكدًا أنّني سأجد ملاك قد وضع فيه مقادير التحويجة، وبالفعل، إنّه أخي - هذه هي المِسْتِكَة، وهذا جوزُ الطِيْب، وهذا القرنفل، وأخيرًا الريحان.

- ما كلُّ هذا! كلُّ هذا من أجل القهوة؟ - لا يا صغيرتي، بل أكثر، ابحثي عندك عن آلة الطحنِ، ربّما ستجدينها هنا أو هناك بعد دقائقَ وبينما كُنْتُ أحَضِّر معايير وأوزان المقادير خاصّتي لأخلطها مع حبوب القهوة قبلَ طحنهم معًا، كانت سلمى وجدت ما نبحث عنه.

- هيّا أفرغي كيلوغرامًا واحدًا في المطحنة، أحسنتِ، ثمَّ بعد ذلك راقبي وتعلّمي.



عايَرتُ ٢٠ غرامًا من المستكَة، وعشرةَ جوزات من جوز الطيب، وملعقةً من القرنفل، وأخيرًا خمسةَ غراماتٍ من الريحان. وبدأتِ المطحنة تطحن لمدّةِ ثوانٍ، ثمَّ أخيرًا قمت بتعبئةِ القهوة في علبةٍ أحبُّها.

- هيّا يا صغيرتي، أعدّي لنا فنجانين. وطبعت قبلةً دافئةً على جبينها.

يبدو هذا المعملُ كبيرًا بشكلٍ لم يمكنني من استكشافه بالكامل، أخبرني ملاك بأنّ هذا المبنى ليس مسكونًا لأنّه جديدٌ إلى حدٍّ ما، ربّما سأشتري الطابق الذي يعلو المعملَ، فعلى كلِّ حالٍ المبنى يُعْتَبَر قليل الارتفاع على عكسِ مساحته الجيدة.

- صغيرتي على مهلِكِ قليلًا، سأقتلك إنْ سكبتِ القهوة.

- سأقتلك أنا إن لم تخبرني بمَ كنتَ تفكِّر.

- لا شيءَ مهم، أفكِّر في شراءِ الطابق العلويِّ هذا.

- لماذا؟ هل وصلت لتلك المرحلة من النضوج لتعيش بمفردك؟ من دون علمي؟ لا هذا مستحيل.

- كلّا لن أعيش بمفردي أيّتها الحمقاء.

- لا تمزح! أنت تقصد أنّك ....

- بالفعل، وقد قلت لملاك أن يحضر الزفاف بعد شهرين.

وكعادة أغلب الفتيات يبالغنَّ بردودِ أفعالهنّ فقد كادت تلك السخيفة أن تسكب القهوة من بينِ يدَّي.

- على رسلك قبل أن أغيِّر رأيي، تبًا لكن!

- لقد انتظرتُ هذا اليوم طيلةَ حياتي تقريبًا... قالت بسعادةٍ جعلت عينيها تقفزان.

- حسنًا. أريدك فقط أن تنتظري حالما يعود ملاك، فأنتِ تعلمين أنَّ الشتاء ليس مناسبًا للزواج.

- حقًا؟ لماذا؟

- لا أعلم، قلتُ هذا فحسب... ضحكتُ وأنا أشربُ القهوةَ قبل أن تلكُمَني تلك العنيفةُ في ركبتي.

- بالمناسبة، كنت أريد أن أخبرك كذلك أنّني ذاهبةٌ لأستراليا لقضاء بعض الوقت مع عائلتي، أنت تعلم لن أتزوجَ قبل موافقتهم.

- بالتأكيد هذا طبيعي، سأكون خلال تلك الفترة أحضِّر المنزل وأفتتح المعمل.

أنهيتُ الفنجان وأرحتُ ظهري قبل أن تسألني

- هل أعجبتك القهوة؟



- نعم، لكن يوجد مجالٌ للتحسُّنِ في هذا الشأن قلت متذمرًا قبل أن أتابعَ. سأجعل ليلى تعلّمك - دعنا من هذا الهراء قبل أن ألكمكَ في أنفكَ الضخم هذا، لقد اقترب موعد المؤتمر ترى كيفَ يشعُر أخوك الآن؟ وماذا تظنُّه يفعل؟

- في مثل هذه الظروف أتذكر كيف كان ملاك يجلس أمام البيانو لساعاتٍ متواصلةٍ دونَ طعامٍ أو شرابٍ، فقط يعزف لترتاح أعصابه.

- لقد أخبرتني بشأن ذلك من قبل، هل هو عازفٌ جيّد؟

- عازف جيد؟ لقد صُنع البيانو من أجل ملاك، وأظنه كان ليصبح أشهر عازفٍ في الكوكب لو لم يختر مجال الطب. كان يزعجني كثيرا عندما كنا صغارًا، فيجبرني على الاستماع لمقطوعته المفضلة ويظل ينشدها باللاتينية. أتعلمين، لقد حفظتها من تكرارها رغم أني لا أفهم منها حرفا. كان يفعل ذلك قبل أي شيء مهم، امتحان مثلًا، مقابلة، يوم زفافه، وبالتأكيد يؤديها الآن في غرفته.

- هل يتحدث أخوك اللاتينية؟

- أنتِ لا تعلمين شيئا يا فتاة، سترين اليوم كم لغةً سينطقها ذلك الرجل أمام الجمع الغفير.

- تتحدث وكأنك تعرف ما سيقول... قالتها بتهكّم ملحوظ.

- لا اعلم تماما، لكني واثق من أنه سيغير العالم اليوم.. ماذا؟ تبدين ممتعضة.



- كيف تشرب هذه القهوة؟ أشعر بمرارة أيّامِ حياتي بكاملها في هذا الفنجان.

- مدلّلة.... قلت متهكمًا قبل أن أتابع... تعالي أعلّمك.

اقتربتُ منها ببطءٍ بينما مازالت شفتاها مبلّلتان بالقهوة - لأقبّلها قبلةً خفيفةً فوق شفتيها الممتلئتين.

- لا أجد اختلافاً... قالت بينما كنت أقرصها من أذنها الصغيرة...

ضحكنا قليلًا قبل أن تنظر في ساعتها قائلةً:

حسنًا سأذهب الآن للبيت وأحاول العودة قبل المؤتمر.

- كلّا لن تجدي الوقت الكافي لذلك، ما رأيك أن تذهبي عند والديَّ لتقضي معهم جزءًا من الليلة وسأعود إليكم.

- حسنًا يا عزيزي، أراك لاحقًا... قالت بينما كانت تطبع قبلةً على لحيتي.

"على مدار القرون وأمراضٌ فتّاكةٌ كانت تودي بحياة الملايين من البشر، وبينما نتقدم خطوةً تجاه القضاء على تلك الأمراض تسبقنا هي بأميال، فما كان لنا إلّا أن نحدث طفرةً، ربّما ستكون هي الحدث الأكبر ليس فقط في هذا القرن بل أيضًا في تاريخ البشريّة.

يموت سنويًا قرابة الثمانية ملايين إنسانٍ بسبب مرض السرطان، ثلثيهم من الفقراء الذين يموتون دون معرفتهم بالمرض.

وخلال أبحاثٍ استمرّت ما يقرب لعشر سنواتٍ توصّلنا لعلاجٍ دائمٍ للسرطان، ولبعض الأمراض المستعصية كنقص المناعة أو ما يعرف بالإيدز. أُنْفِقَ على هذا المشروع عشرات الملايين بل وربّما المئات، حتى توصلنا لما أنتم جالسون الآن لتسمعوه. الباراتوكس.

لم اتّخذ قراري بعد بشأن موعد طرحه في الأسواق، لكنْ بالتأكيد سيكون ذلك خلال الأشهر القليلة القادمة، لذلك فإنّ الباراتوكس سيخضع للاختبار مرّاتٍ عديدةٍ قبل أن يتمَّ اعتماده ثمَّ طرحه في الأسواق كما قلت. أيُّ أسئلة؟

- أرأيتِ كم كان رائعًا؟

- بلى، إنّه أكثرُ من رائعٍ يا أمّي، هل سلمى عندك؟

- بالطبع، ألا تستطيع تمييز ضحكاتها العالية. قالت بينما تضحك.

- حبيبتي كلكم تضحكون. أردفت مبتسمًا.

- أنت لا تتخيّل كم سعادتنا برؤية أخيك في مثل هذا الموقف، أتمنى أن أراك مثله يومًا ما - بإذن الله، بإذن الله يا أمّي - هل ستبيت عندك أم ستأتي الليلة؟ - كلّا، أفضِّلُ المبيت هنا، هل أَخْبَرَتْكِ سلمى بشأن زواجنا المقرّر؟

- أجل يا عزيزي، أنا سعيدةٌ لأجلك. ووالدك كذلك.

- تصبحين على خير.



حسنًا يبدو أنّ المؤتمر انتهى تقريبًا، فقط بعض الأسئلة التي لا مغزى منها إلّا ليستعرض ملاك قدرته على الإجابة بكل اللغات، كم هو جهازٌ مستفِزٌّ حقًا، عشرات القنوات ولا تجد فيها شيئًا تشاهده، ربّما بعضَ المباريات التي تزيد الضغط وتتعبُ الأعصاب وإلى جانبها أخبارٌ عن حوادثَ وتفجيراتٍ وعلاقاتٍ متوتّرةٍ بين روسيا والولايات المتّحدة. هذا العالم سيءٌ للغايةِ من دونِكٍ يا قهوتي، كيف كنت سأحتمل البشر حقًا؟ لا أعلم.

يبدو أنّني لن أنعم ببعض النوم في ليلتي هذه، وقد نسيتُ كذلك علبةَ أقراصِ الصداع تلك، كم أنا غبيٌ حقًا هل أتّصلُ بملاك الآن؟ بالتأكيد لا فهو ينعُمُ ببعضِ الوقت اللطيف مع أسرته لم لا أحاول؟ حسنًا اتصلت به وكما توقّعت، كان هاتفه مغلقـًا.

هل أتابع نشراتِ الأخبارِ وردودَ الفعلِ حول المؤتمر؟ ربّما يجبُ عليَّ أن أنام فالوقت قد تأخّر قليلًا، ولكن لماذا أنام الآن! فأنا لم أفعل شيئًا طوال اليوم! مهلًا أنا لم أصف لك معملي، أعتذر عن هذا حقًّا، سآخذك ونفسي في جولةٍ عسى الصداع يزولُ من رأسي.

نحن هنا في صالةِ الاستقبال، شاشةُ عرض تلك التي تواجه الأريكةَ التي أستلقي عليها الآن، وهذا هو الحمّام بجانب الممرِّ الضيِّق هناك. في نهاية هذا الممرِّ يوجد ثلاثُ غرفٍ، واحدةٌ هي المطبخ، والأخرى هي غرفة النظافة، والأخيرة هذه ليست غرفة حقا، بل هو ذلك الباب المؤدي للطابقِ السفليِّ، دعنا منه الآن ولنذهب في الاتجاه المعاكس من صالة الاستقبال، تمامًا عند غرف التحاليل ومعملي الداخلي يوجد

كما ترى هناك أربعةُ أبوابٍ ؛ زوجٌ منهما متقابلان، ويبعدهما بأمتارٍ قليلةٍ بابٌ ثالثٌ قبل الباب الأخير والذي هو معملي البابان المتقابلان كلٌّ منهما لغرفةٍ متوسطةِ الحجمِ، مجهّزتان لأخذِ عيّناتِ الدمِ من المرضى بشكلٍ عامٍ، بينما الغرفة الثالثة فهي غرفةُ حفظِ العيّنات، تعرف ذلك بمجرّد دخولها من برودتها الشديدة ورائحتها التي تشبه رائحةَ مؤخّراتِ الأطفالِ حديثي الولادة. كان هذا تشبيهًا سيئًا، عفوًا.

وكما قلت لك فإنّ الباب الرابع لمعملي، والذي يُعْتَبَرُ كبيرًا إلى حدٍّ ما، انظر! ربّما لم أتخيل أنّني سأمتلك معملًا مجهّزًا بكلِّ هذه المعدّاتِ، أنا حقًا لا أرى سببًا يمنعني من افتتاحه والبدءِ بالعمل لقد انتهينا هنا ماذا؟ أنت لا تريدني أن أنزل للطابق السفليّ أليسَ كذلك؟ بالطبع لا ممّ سأخاف! هذا يحدث فقط في أفلام الرعب وليس هنا! لا تكن مملًّا! حسنًا سننزلُ سويًّا.

كما ترى، بابٌ عاديٌّ تمامًا، وسلّمٌ مثله تمامًا، ربّما صوتُ خطواتي يجعل منه مخيفًا قليلًا ولكن لا بأس. الإضاءة تعملُ بشكلٍ جيّدٍ، وهذه الغرفة التي سأنامُ فيها، وهذه هي الغرفةُ التي لا مقبض لها. سأحاول فتحه فيما بعد لكنّ رأسي يتصدع من الألم، لذلك لا أظنّني قادرًا على شيء الآن سوى النوم.

أرحت ظهري على السرير، أغمضت عينيَّ التي بدأتا تدمعان، بالطبع لم تكن تلك دمعات حزن، لا أعلم حقا لم تنهمر تلك القطرات الساخنة، لا أذكر حتى آخر مرة بكيت فيها، هل كان ذلك يوم أن تُركت وحيدا في منزلنا إذ أنستهم ولادة أمي لشقيقتي أني نائم في غرفتي حتى

عصر اليوم التالي عندما بحث عني صبري؟ كان ذلك قبل عشرين سنة حسب ما أذكر كلا! لقد بكيت أيضًا يوم زفاف ملاك، كان حفلًا اسطوريًا، أذكر أن علماءً ورؤساء ورياضيين وفنانين قد حضروا ذلك اليوم. أذكر أيضا أنني أُخبرت برسوبي في عامي الثاني في الكلية اليوم ذاته، توسّط ملاك ذلك اليوم المنصة وعن يمينه وشماله أشخاصُ لن تراهم في حياتك إلا في مواكب وطائراتٍ خاصة على شاشات التلفاز. أظنه كان يومًا جميلًا. ارتوت شعيرات ذقني الذابلة بما تبقى من القطرات التي أبت مسام وجهي المجعد أن تمتصها، وبدا لعقلي أنه أكتفى من الجرعة اليومية وقد آن أوان سُباته.

قمت من نومي لا أعرف كم مضى من الوقت، ألم يعتصر دماغي، وبرودة غريبة تجتاح جسدي، يا الله! ما هذا الألم! رأسي يتعرق وكأن الشمس تعلوه بسنتيمترات، وبداخلي برودة تجعل قلبي ينقبض دون انبساط، رئتاي ترتعشان وتيبست أصابعي كأسنان المشط، لا أرى أمامي سوى شريط حياتي التافهة الفارغة من كل شيء، ولماذا أتذكر معزوفتك الغبية الآن يا ملاك! جاهدًا حاولت الإمساك بهاتفي، حاولت التنفس بصورة طبيعية، أشعر كأن جبلًا جليديا قد اخترق قلبي، وحممًا بركانية تنزع جلدي عن عظامي. يا للسخرية! هل سأموت الآن؟ لماذا أضحك إذا، تتعالى قهقهاتي وكأني أشاهد شيئًا أكثر إضحاكًا من شريط حياتي ينتفض قلبي مع كل ضحكة تخرج رغمًا عني، وقد عادت عيناي تدمعان، يا للسخرية حقا! يصل ملاك لأعلى مراتب المجد بينما أحتضر هنا ارتخى جسدي مرة أخرى، اختفت ضحكاتي

وخفتت نبضات قلبي، ساد الظلام، لا أعرف هل أغمضت عيني أم أنني فقدت الرؤية، فقط ساد الظلام.

(٤)

موسكو

- صبري! ألا يوجد هنا من يتحدّثُ العربية؟ أشعر بالسُخْفِ حقًا من عدم فهمي لما يحدث - مهلًا يا صديقي سأنهي حجز الغرف ريثما تنتظرني هنا - حسنًا - لن أتأخر لا تقلق.

- لا يهم.

طلبت من تلك الفتاة الجميلة فنجانًا من القهوة، ولحسنِ حظي كانت تفهم الإنجليزيّة. تفقّدت المكان حولي سريعًا، ليس مميّزًا، قاعةُ انتظارٍ كبيرةٍ كتلك التي توجد في كلِّ فندق، كبيرةٌ قليلًا، ربّما أكبرُ من غرفتي. جاءت تلك الفتاة رائعةُ الجمالِ حاملةً القهوةَ بينما كنتُ أقرأ رسالةً من جوليا حول المعمل.

إنّ روسيا جميلةٌ حقًّا، فرغم الصقيع الذي تكاد أوصالي تتساقط من شدته، إلّا أنّني حقًا أحببت ذلك، ربّما لأنّي لم أغادر منزلي لأشهرٍ عديدة. يبدو أنَّ صبري سيتأخر... ببطءٍ شديدٍ بدأت أرتشف فنجاني رشفةً تلوَ الأخرى، مستمتعًا بمرارته تلك المرارة التي صارت معشوقتي الأولى والوحيدة، مرارةٌ اعتدتُ عليها طيلة السنوات الماضيّةِ فصارت جزءًا أساسيًّا من حياتي.

- هيا بنا يا فتى، ألم تنهِ قهوتك بعد! حسنًا.

أشار صبري للنادلةِ طالبًا فنجانًا كفنجاني قبل أن يستقرَ في مقعده أمامي.

- اسمه "ديمتري أبراموف" ... ثمَّ خفَتَ بصوته متابعًا ..... ضابطٌ في المخابرات الروسيّة...

- ماذا؟ يا له من اسمٍ عاديٍّ! كأنَّ أحدهم قام بالبحث عن " أسماء روسيّة للذكور ٢٠٣٢ "

- الآن أصبحت تمزح! يبدو أنَّ القهوةَ مزاجها جيِّدٌ حقًّا.

أخذتُ رشفةً طالبًا منه أن يكمل حديثه ...

- كان " ديمتري " هذا على اتصالٍ دائمٍ بملاك، كأحد أفرادِ الطاقم العلميِّ الأوروبي الذي عمل معه لسنوات..... أخذ فنجانه من النادلة بينما تابع .... لديه ابنٌ شابٌ اسمه أليكساندر يعيش الآن مع أمّه.

- ما هذه المعلومات يا صبري؟ و ما شأني بابنه و زوجته أو أمّه! أريد أن أعرف لماذا و متى فعل هذا الرجل فعلته ولمصلحةِ من! هل هي .....

قاطعني سريعًا - سنعرف ذلك حالما نذهب لرؤية الجثّة، هيا بنا لقد وصلت السيّارة. لم يمرَّ الكثير من الوقت حتى وصلنا لذلك المبنى الضخم، يتّضح من حجمه أنّه مبنىً حكوميٌ، شاهقُ الإرتفاع، ربّما خمسةٌ وعشرون طابقاً، كان في استقبالنا وفدٌ رفيع المستوى - يمكنك أن تفهم ذلك من ثيابهم السوداء و النظّارات الشمسيّة - لهذا قاطعني



صبري في الفندق إذًا. رافقونا إلى المبنى و التزم جميعهم الصمت عدا ذلك الشخص - الذي أظنّه الأعلى رتبةً بينهم - ظلَّ يخاطب صبري و كأنّهما زميلي عملٍ سابقٍ، أخذنا المصعد لطابقٍ عالٍ - لم أستطع رؤية رقم المصعد فهذا الضخم يحجب الرؤية تمامًا.

- لم أكن أعلم أنك تتحدث الروسية...

- أنت لا تعلم شيئًا يا رجل، لا تُثِر الانتباه فهؤلاء أشخاصٌ لا يتقبّلون المزاح كثيرًا.

- انظر إلى حالك الآن أصبحتَ مهمًّا.

قاطعني صوتُ وصولِ المصعد، بينما رافقنا ذلك الدولاب البشريُّ إلى ممرٍّ ضيّقٍ حيث خلعنا ملابسنا الشتويّة تلك و تعقّمنا قبل أن ندخل إلى المشرحة، ويا للصدمة! كتلةٌ صغيرةٌ من اللحم البشريِّ، جذعٌ و رأسٌ مهشّمٌ يكاد يذوب لحم وجهه، ساقٌ وذراعٌ يمنيين، ربّما لو لم يقتل ذلك المسكينُ ملاك لأشفقت عليه.

- مطابقةٌ لجثّة ملاك، أليس كذلك؟

- تطابقٌ مثاليٌّ يا صبري، وكأنّهما قُتِلا على يد الجزار نفسه أواثقٌ أنّ هذا من قتل ملاك؟ - ثقةٌ تامّةٌ مطلقة - حسنًا، اتركني لبعض الوقت مع هذا اللحم المهترئ، يمكنك اللهوُ مع أصدقائك ذويِّ البزّات السوداء تلك.

متأفّفًا خرج صبري من المشرحة ليتركني مع هذا المسكين، بالطبع أشفق عليه، ألا يبدو لك أنّه العبد المأمور؟ لا يمكن لطريقة القتل أن تتطابق هكذا إلّا في حالتين، إمّا أنّ القاتل هو ذاته من قتل ملاك، أو أنّ ملاكًا قد عاد من الموت لينتقم منه بنفس الطريقة. أُفضّل تصديقَ الخيارِ الأول.

بينما أعبث بجثّةِ هذا المسكين تعاطفت حقًّا معه، لم يكن هذا الشقيُّ إلّا مجرد دميةٍ استخدموها للإيقاع بك يا ملاك، لن أرجو أن تسامحه، لكنّي أظنُّه فعل ذلك مضطرًّا. ما رأيك أنت؟ هل لو كنت مكان هذا الرجل كنت لِتفعل فعلته؟ هل كنت لتقتل عالمًا أو بطلًا ذا شأنٍ عظيمٍ فقط لأنَّ حياتك مهدّدة؟

هل تظن أنَّ حياتك أهمُّ من حياته؟ ربّما لا، فأنت بالتأكيد ذلك المُنافق مُدَّعي البطولة تريد فقط أن تنأى بنفسك عن الإجابة الصريحة هنا. لا بأس عليك، أظنُّ أنَّ أيَّ أحدٍ مكانه كان ليفعل ذلك، قال صبري منذ قليل أنّه لديه ابنٌ شابٌ و زوجة، بالتأكيد هدّدوه بهما لا تكن ساذجًا!

هذا اختيارٌ عصيبٌ يا رجل لا أتمنى لك مواجهته.

انظر هنا، لقد حرقوا وجهه بسائلٍ كيميائيٍّ، ربّما حمضُ الهيدروفلوريك، ترى ذلك من عظام الجانب الأيسر من وجهه، ها هي أسنانه أو ربّما ما تبقى منها، وانظر لكلِّ آثار الحُقَنِ هذه، بالتأكيد يا رجل لقد حقنوه بالباراتوكس، تمامًا كما فعلوا بأخي، قطعوا ساقه اليسرى و كذلك ذراعه، حقنوه كما حقنوك بذلك الطفيلي الذي

طوّرته أنتِ يا ملاك، بالتأكيد لن أتعجّب من شرور البشر، لم أعش كثيرًا لكن أظنُّ أنّني رأيت ما يكفي في حياتي كم كانت هادئةً قبل أن يحدث كلُّ هذا، فبدلًا من أن أعبث بستائر البيت مضايقًا سلمى، هأنذا أعبث بجثّةِ من قتل أخي كما فعلت قبل ذلك من سنواتٍ قليلة بجثة أخي نفسه.

لا عليك، أنا بخيرٍ لقد اعتدت ذلك الشعور بالفقدان، أظنّك شعرت به أيضا، هو شعورٌ لا يوصف، فقط تشعر أنَّ شيئًا ما بداخلك قد ذهب، تشتاق أحيانًا لأناسٍ لم تعتد الاشتياق إليهم، تشعر بذلك الندم أنّك لم تمضِ الوقت الكافي معهم منذ البداية و تبدأ في سبِّ نفسك ولعنها، ليتني شاطرتهم بعض الأحاديث، ليتني تشاجرت معهم أكثر، ضحكتُ ولعبتُ أو ربّما يا ليتني لم ألتقِ بهم من الأساس، على الأقل لم أكن لأشعر بهذا الشعور.

لماذا اخترت هذا الطريق من البداية يا ملاك؟ كنت لتكون موسيقارًا أو عازفًا أسطوريًا، حتى لو كنت تحب مساعدة البشر كان الأولى أن تصبح جرّاح أطفال أو ربما عيون، لقد أجريت لي بالفعل جراحةً في عيني تلك بينما كنتَ في الثالثة و العشرين، كنت أسطورةً ربّما لن تتكرّر، لكنّي أردتك أخًا حيًّا أكثر من أسطورةٍ ميّتة.

صوتُ طرقِ الباب جعلني سريعًا أكفُّ عن النواح، إنّه صبري بالتأكيد.

- ادخل

- ألم تنتهِ بعد؟ يبدون غيرَ راضين عن وجودنا هنا طويلًا.



- بلى، حصلت على ما أريد، هل حصلت أنتَ على بعض المعلومات؟

- على الكثيرِ منها، هيّا بنا فالسيّارة تنتظرنا في الأسفل.

ركبت وصبري السيارة التي كانت قد أُعِدّت مسبقًا للعودةِ إلى المطار، كان صبري محقًا بالفعل، لم يكن مرحبًا بنا هنا، بِتَلَهُّفٍ شديدٍ كسرتُ الصمت الذي لم يدم إلّا قليلًا:

- أخبرني إذًا، علام حصلت؟

على هذا، يحتوى هذا الملف على كلِّ المعلومات التي كان يزودهم بها ديمتري.

- دعني ألقي نظرةً.

أخذت منه ذلك الملّف الورقي وأجريت عليه نظرةً سريعةً لأجد ما يلفت الانتباه. بالطبع، كلُّ ما يخصُّ ذلك الفريق البحثيَّ الذي عمل مع ملاك طوال سنوات.

- ماذا عنك، أوجدت شيئًا بجثته؟.

- بالطبع.... ألقيت إليه برقاقةٍ صغيرةٍ مغلّفةٍ بغلافٍ بلاستيكيٍّ شفاف لينتفض صبري بجانبي..

- مهلًا! أنت لا تعلم ما هذه الرقاقة أليس كذلك!

- لو كنت أعلم ما احتجت إليك يا عبقري.



- هذه شريحةُ تعقُّبٍ تستخدمها بعض أجهزة المخابرات لمراقبة رجالها... كانت مطموسةً تحت جلد الرقبة، أليس كذلك؟

- كلّا، كان هنالك جرحًا في عنقه، لكنّي وجدت هذه في أسفل صدره...هل تظنُّ.....

جحظت عيناه حتى كادتا تخرجان من مكانيهما

- بالتأكيد، غرسها ذلك الوغد إذًا لنفسه ليسجّل تحركاته كي يحصل عليها أحدهم.... يا فتى لقد حصلنا على ما نريد حقًّا.

***

في المطار وبينما كنت بقاعة الانتظار أحاولُ فحصَ الشريحة قبل إدخالها في حاسوبي المحمول، أتى صبري حاملًا كوبين من القهوة وتبدو عليه السعادة الغامرة. لم أكن أعلم أنّه بتلك الأهمية - كي أكون صريحًا - فقد كان رجال المخابرات الروسية هؤلاء يعاملونه بودّ واحترامٍ بقَدْرِ ما عاملوه بحزمٍ وجديّةٍ وصرامة. من الجيد حقًّا أنّه ما زال على قيد الحياة. جلس صبري وناولني القهوة واستهلَّ حديثه...

- هل انتهيت؟ لا نريد إضاعةَ الوقت.

- أمهلني دقائق، أنا لا أفعل شيئًا فالحاسوب هو من يقوم بالعمل كله.

رنَّ هاتفه ليستأذن ذاهبًا للردِّ. يا رجل لقد كبرت على هذه الأشياء بالفعل، لا أستطيع منعَ نفسي من الضحك كلّما تخيلتُ أنَّ فتاةً

ستحب صبري، كلّا لا أقصد التقليل منه فهو ما تبقّى لي من عائلتي، لكن يا رجل، يكاد صبري أن يبلغ الستين من عمره بالفعل، كيف لرجلٍ في مثل عمره هذا أن يفعل ما اعتدنا فعله في سنوات مراهقتنا تلك؟ لا عليك، فلربّما ما زلت تفعل أنت الأمر ذاته. تفقدتُّ المعمل سريعًا من هاتفي وجلست منتظرًا «روميو» كي يُنهيَ مكالمةَ العشق تلك.

- عذرًا يا صديقي، كانت مكالمةَ عملٍ.

- بالطبع كلّهم يقولون ذلك، لا تخف يا رجل لن أخبر أحدًا أنّك تعاني من مراهقةٍ متأخِّرة بضحكاتٍ لن تملَّ من سماعها قال صبري - انظر لحالك الآن تمزح، كلّا، إنّها تلك الصحفيّةُ الجديدةُ التي حدّثتك عنها من قبل، تريد مقابلتك... هذه المرأة لا تكلّ من العمل أبدًا.

- حقًّا؟ كانت مكالمة عملٍ إذًا، حمدًا لله أنّك ما زلت محتفظًا بعقلك...... أخيرًا! انظر ها هنا، أنا لا أفهم كثيرًا في الخرائط...

كانت الشريحة تلك تظهر نقاطًا حمراءَ بأماكن متفرّقةٍ يمينًا ويسارًا، ، وكأنّه خطُّ سيرٍ بحيث تزداد درجة احمرار النقاط بأماكن دون الأخرى... دنى صبري بكرسيّه حتى يمعن النظر في شاشة الحاسوب مصدرًا بعض الأصوات بشفتيه...

- ما بالك يا رجل هل ستلعق الشاشة! قل لي ماذا تفهم من هذه النقاط - حسنًا، هلّا تأكّدت من تقرير اختفاء شقيقك، بالتأكيد كان ديميتري متواجدا بالمؤتمر، أليس كذلك؟

- بالفعل...

- فلنقل إذًا أنّ هذه النقطة شديدةَ الإحمرارِ في بدايةِ الخطّ هي هنا، في موسكو، وبما أنّك أكدّت أنّه كان في باريس ذلك اليوم - فلا بدَّ أن تكون هذه النقطة الصغيرة في باريس... وإذا سِرنا مع الخط هذا لأسفل سنكون في......... إيطاليا....

لم انتظر فقد كنت بالفعل أبحث في بيانات الفريق الطبيِّ..... ماركو روسّو، الاسم الوحيدُ من إيطاليا. أرسلت على الفور تلك البيانات إلى جوليا لتطابقها مع الخريطة، بحيث تبدأ النقطة الأولى من موسكو وترسل لي الموقع بالتحديد، وبغضون ثوانٍ أتت النتائجُ.

- صبري، أنت عبقريّ.

- كلّا كنتُ فقط أحب مادة الجغرافيا في صِغري.... أرني ماذا لدينا.

أرسلت لي جوليا صورةَ الخريطة بالتفصيل.. يظهر خطُّ النقاط بدايةً من موسكو، مرورًا بباريس ثمَّ قاطعًا فرنسا من باريس حتى جنوبها مع الحدود الإيطالية

- إذًا فوجهتنا القادمة إلى إيطاليا يا فتى.

- بالطبع، نَدينُ لماركو روسّو بزيارةٍ قصيرةٍ، لكن علينا العودة أولًا كي نرتّبَ أوراقَنا.

(٥)

الباراتوكس

ديميتري..

- هل أنت مستعدّ؟

- بالطبع سيّدي...سأفعل ما بوسعي.

هكذا انتهت محادثتي الهاتفيّة مع رئيسِ المكتبِ آنذاك، كانت مهمتي واضحةً وبسيطة وهي الحصولُ على القدر الأكبر من المعلومات حول هذا الاكتشاف، فلقد تمَّ اكتشافه على أراضٍ روسيّةٍ بكلِّ حال. من الجيِّد حقًّا أنّني درست العديد من اللغات وإلّا ما كنتُ حصلت على هذه المهمة. لم يفترض أن تكون هذه المهمة بتلك الصعوبة كسابقاتها، أذكر كيف اضطررتُ لانتزاع أظافر ذلك الجاسوس الكازاخي وحرقها بحمضٍ حارقٍ، آه يا رجل ما زال صراخه يرنُّ في أذنه عندما اختطفنا زوجته. لا أريد الحديث عن هذا.

ظننت حينذاك -قبل سنوات عديدة- أنّها ستكون مهمةً قصيرةً، فقط أرافق هذا الوفد البحثيَّ رفيعَ المستوى وأحصل على ما أستطيع الحصول عليه وأذهب، بهذه البساطة، كنت غبيًا.

لو كنت فقط أعلم أنّني سأجلس جلستي هذه منتظرًا نهايتي، لما اخترت هذه المهمة.

كان يومي الأول في العمل هادئًا، فالسيد ملاك شخصٌ لطيفٌ بالفعل، أذكر أنّه جاء متأخرًا عن موعده بدقائقَ قليلةٍ كي يلتقي بي وأعرِّفَه بنفسي، ظلَّ يعتذر مني كثيرًا ذلك اليوم حتى أنّه أخذني للغداء في مطعمٍ لم أتخيل يومًا أنّني سأدخله.

- إذًا ديميتري، هل لديك أطفال؟

- بالطبع سيّدي، لديَّ الكساندر بعمر الثامنة.

- الفارق بينكما ليس كبيرًا إذاً.

- بلى، أصرّت جدتي أن أتزوج كي ترى حفيدها قبل أن تموت، لا يكُفُّ عن الشكوى كوني لا أقضي معه الكثير من الوقت، فكما تعلم المترجمون كثيرو السفر والانتقال.

- بربك يا رجل، يجب أن تقضي مع ذلك الفتى وقتًا أيضًا، يحتاج الصبيةُ إلى آبائهم في هذه السنِّ دونًا عن غيرها. لا تريد أن تراه ملازمًا لأصدقاء سيئين على سبيل المثال.

- أتفهُّم مقصدك حقًّا يا سيّدي ولكن...

- كفاك مناداتي بسيّدي، أنا لستُ سيّدًا، أنا لستُ ربَّ عملك كي تتملقني هكذا، فقط تصرف بطبيعتك يا رجل كفَّ عن المغالاةِ في الحديث.

كان رجلًا متواضعًا بشكلٍ كبيرٍ، لم نحتج كثيرًا من الوقت كي نصبح أصدقاء، فبمجرد أن تكلمت أمامه بالعربيّة صرتُ بالفعل صديقه المقرّب. استمرّت تلك الصداقة لسنواتٍ عديدةٍ، ربّما ثمانِ أو تسعِ سنوات، كانت صداقةً كالأخوّة، بل ربّما أكثر أحببت في ذلك الرجل كونه صادقًا، محبًّا للجميع، ثقتُه الكبيرة والتماس الخير في بني البشر، لكنّك يا صديقي لم ترَ شرور نفوسهم أبدًا، على الأقل ليس كما رأيت أنا.

- ملاك، هل لي بسؤالٍ ولك مطلقُ الحريّة إن لم ترد الإجابة عليه؟ أومأ موافِقًا برأسه بينما يلتهم شطيرةَ الدجاج خاصّته لأتابع... لماذا تفعل كلَّ هذا، حقًّا لمَ كل هذا العناء؟ السفر والأبحاث وكلُّ تلك الأموال من جيبك الخاص، لماذا؟

- لا أعرف حقًّا، ربّما أظنُّ أنَّه لابد لنا من أن نفعل ما بوسعنا كي نجعل من هذا العالم مكاناً أفضل، لا أعلم.

- لكنّي أظنّك لست بتلك السذاجة التي تجعلك تصدِّق أنّ العالم سيصبح ذات يومٍ مكانًا أفضل.

- بالطبع لن يصبح، انظر لنفسك، أنهيتَ شطيرتك للتَوِّ، لماذا إذًا ستقوم لغسل يدك؟ ستتسِّخُ مرّةً أخرى عندما تتناول العشاء، ولماذا قصصت أظافرك مؤخرًّا؟ هاه؟ ستنمو مرّةً أخرى بعد عدّةِ أيامٍ وستقصّها مرّةً أخرى، وكذلك لماذا تستحِّم وتتعطر صباح كلِّ يوم؟ أليس لأنَّ ذلك هو الصواب؟ لكي يصبح منظرُك ورائحتُك أفضل؟ هل أنت ساذجٌ لأنّك تفعلُ ذلك رغمًا من علمك بأنّك ستتسّخُ مرّةً أخرى؟

ليس المغزى من فعلنا للأمرِ الصواب هو أن نجعل العالم مكانًا أفضل، بل لأنّنا نريد ذلك، هل تظنّني لا أعلمُ أن اكتشافنا سَيُسْرَقُ ويُسْتَخْدَمُ ربّما كسلاحٍ حيويٍّ لتهديد الملايين؟ أو كأداةٍ للتفاوض بين الحكومات للدول الكبرى أو ربّما ستتمُّ المتاجرة بحياةِ البشر من أجل المليارات التي ستأتي من هذا الدواء، أبظنّك أنّي لا أعلم كل ذلك؟ بالطبع أعلم لكنَّ ذلك لن يوقفني، سأفعل ما بوسعي كي يظهر هذا الدواء للعالم، وليَسْتَخدِمْهُ العالمُ كما يشاء، فبالتأكيد لن أكون على قيدِ الحياةِ حينها.

كم كنتَ حكيمًا يا رجل، ويا للمفارقةِ، فأنا من قتلتك بيسراي، على الأقل لست حزينًا على ما حلَّ بها مؤخرًا.

أذكر كذلك يوم أن افتتح ملاك ذلك المركزَ الطبيَّ لعلاج الفقراء، لم يكونوا من أهله ولا من لونه ولا يجمعهم به شيءٌ على الإطلاق، لكنّه أراد أن يترك بصمته في كلِّ مكانٍ يذهب إليه، وأيُّ بصمةٍ تلك التي تركتها فيّ يا رجل.

- لماذا اخترت هذا المكان؟... هكذا سألته عندما حضرنا معًّا افتتاح ذلك المركز الهائل.

- لأنّه المكان ذاته الذي جعلني آتي الى هنا، المزرعة نفسُها التي مات صاحبها بسبب الباراتوكس، انظر لهذه الشجرة ها هناك، ستظلُّ علامةً مميّزةً لهذا المكان.

- لا أرجوك لا تبدأ حديثك عن الأشياء التي لا أفقه فيها شيئًا... كنّا نتجولُ آنذاك بين طرقاتِ ذلك الصرح الطبّيِ الهائل، أشرت حينها لأحدِ الفقراء المرضى المستَلْقِينَ على الأسرَّة... ملاك انظر إلى هذا الرجل هناك، يبدو لي حقًّا أنّه يشبهك.

- يا رباه، حسنًا ها قد وجدنا واحدًا، بقي لنا تسعةٌ وثلاثون.... ثمَّ تابع ضاحكًا .... ماذا بشأنك، هل رأيت يومًا شخصًا يشبهك.

- صديقي لا يوجد شخصٌ على وجه الأرض بتلك الوسامة والأناقة.

- انظر إلى صديقي المتواضع... تعالت ضحكاتنا قبل أن يسألني سؤالًا غريبًا ... - ما هو دافعك للحياة يا صديقي؟ تبًا لك يا رجل، ضربني بذلك السؤال في مقتلٍ... - ربّما أليكسي، ليس لديّ إلّا هو كي أحيا من أجله على الأرجح.

- فهل إن مات أليكسي ستموتُ من بعده؟

- يا رجل! ما هذا الكلام.

- أجبني فقط، أريد حقًّا أن أعرف إجابتك عن هذا السؤال - إذًا فلا بدَّ أنّني سأموت قبل أن يؤذي أحدٌ ابني - من قال أنّ أحدًا سيؤذيه، يا رجل أنا أتحدث عن شيءٍ طبيعيٍّ، قضاءٌ وقدر... لا عليك... كان سؤالًا وحسب.

- لا أعرف، لماذا تسأل؟



نظر حينها للجمعِ في ساحة الانتظار وأجابني

- انظر لكلِّ اولئك الناس، لكلٍّ منهم إخوةٌ أو أبناء أو أحبّاء وأعداء كذلك. هل برأيك سيفنى كلُّ شخصٍ بمجرّدِ فناءِ أحبته؟ هل من العدل أن تربط حياتك بحياة شخصٍ آخر؟ أن تجعل من شيءٍ لا قرار لك فيه ولا قدرة لك عليه هو سبب تعلقك بالحياة؟ إن مات الكساندر غدًا في حادث طريقٍ او بسبب حربٍ ضروسٍ بين روسيا والولايات المتّحدة، هل سينتهي ارتباطك بالحياة؟

- إذًا لن تحزنَ إن حدثَ لابنتك أو زوجتك الأمرُ ذاته؟

- بالطبع سأفعل، سيعتصر الألمُ قلبي وسينفطر ولربَّما ستجفُّ عيناي من الدموع، لكنّي سأحيا لأنّ لي هدفًا أحيا من أجله.

- وما هو هذا الهدف؟

- هو ذاته الذي سأموت من أجله تذكّر جيدًا يا صديقي، إنْ لم يكن هنالك شيءٌ تموتُ من أجله، فما من شيءٍ تحيا لأجله وبالضرورة لا بدَّ أن يكون هذا الشيءُ باختيارك، بقرارٍ منك أنت، لا بقضاءٍ وقدرٍ أو بخيارٍ يختاره لك الآخرون.

- ها أنت ذا تُلقي بالعبر والعِظات كأنّك تلقنّني درسًا... لا تنسَ أنّني أكبرُ منك بسنةٍ كاملةٍ.. تشاركنا الضحكات قليلًا قبل أن أشكره على كلِّ شيء.

- سأشتاق لك يا ديمتري، أنت رجلٌ صالحٌ حقًّا - لا يصحُّ الحديث عن الصلاح بوجودك، سأشتاق لك أيضًا يا رجل - كلّا لن تفعل، لن أغيب طويلًا على كلِّ حال، يومان أو ثلاثة على الأكثر قبلَ أن أعودَ ها هنا.

لم أكنْ بمثل ذكائِك يا ملاك، ولم أكن بالطبع بمثلِ قوّتك. علمتُ ذلك عندما جاءتني تلكَ المكالمةُ الهاتفيّةُ، رجلٌ يتحدّثُ الإيطالية يخبرني بأن أقابله غدًا في الحديقة العامة، تظاهرت حينها أنّني لا أفهم ما يقول ليفاجأني بردِّه:

- لا تصطَنِع البلاهة يا هذا، ربّما ستفهم هذه اللغة جيدًا.

«أبي، ما الذي يحدُثُ بحقِّ السماء، من هؤلاء القوم».

كان ذلك صوت الكساندر، لم يكن فقط ابني الوحيد، بل كان كلَّ شيء.

- من أنتم وماذا تريدون؟

أجابني بالإيطاليّةِ مجدّدًا

- أتصْطَنِعُ البلاهة مرّةً أخرى؟ أنت تعلم ما نريد. قابلني غدًا في الحديقة العامّةِ بوسطِ المدينة.

- إنّ حدث أيُّ شيءٍ له فسأ....

أغلقَ الخطَّ في وجهي، لابدَّ أنَّ ذلك الشخص عَلِمَ تمامًا طبيعة عملي فقد اتّصل بي من تطبيقٍ مشفّرٍ غيرِ خاضعٍ للمراقبة الحكوميّة، هل

كان من المفترض عليّ أن أخبِر رؤسائي في العمل؟ ربّما لا، كان ذلك سيودي بحياةِ الصبي، ماذا تظنّني فعلت يومها؟ بالطبع ذهبت لمقابلته، انتظرت لساعتين قبل أن تظهر امرأةٌ شابّةٌ مقدمّةً إليَّ شريحةً رقيقةً وذهبت بدون أن تنطق بكلمةٍ واحدة.

أدخلتُ الشريحةَ بحاسوبي المحمولِ، كانت فارغةً تمامًا من كلِّ شيءٍ عدا قائمةٍ بالمهام التي يتوجَّبُ عليّ فعلها، وفي نهايتها رابطًا لموقعٍ ما. ضغطت الرابط ليذهب بي إلى موقعٍ غريبٍ لا يُظْهِرُ إلّا غرفةً شديدةَ الظُلمةِ، كان ذلك ما تصوّره كاميرا المراقبة بها، ليظهر فجأةً من وسطِ الظلامِ رجلٌ مقنّع يجرُّ جسدًا بشريًّا، إنّه الكساندر، مقيّدٌ من ساقيه وذراعيه ويبدو كما لو كان فاقدًا للوعي. حسنًا فهمت.

كانت قائمة المهامِّ واضحةً كما تتضِّح الشمسُ في ساعة الظهيرة، سيكونُ ملاك مع فريقه البحثيِّ بباريس خلال يومين حيث سأرافقهم، ستحدُثُ فوضى عارمة، سآخذُ صديقي إليهم وآخذُ أليكساندر ونهرب بعيدًا، ربّما في لندن أو نيويورك، لا يهم أين، بقدر ما يهمُ أنْ نكون بعيدينَ عن روسيا أتمتع الآن بهذه الحريّةِ التي لم أعِشها من قبلُ، حريّةِ الحديثِ عمّا أفكّرُ فيه، فأنا رجلٌ هالكٌ لامحالة.

حدثت تلك الفوضى، حذّرَني رؤسائي بالمكتب ممّا سيحدث وأمروني أمرًا لا نقاش فيه ولا جدال، حالما تحدث الفوضى تأتي بملاك فورًا إلى هنا، لكنّي بالطبع لم أفعل، أخذت صديقي وزوجته وطفلته الصغيرة تلك في سيارةٍ من سيارات الإسعاف، لم يكن صعبًا عليَّ اختطافهم، فهذا عملي يا رجل، وأخذتُ طريقي الطويل إلى جبلِ «مون بلان»

بحدود إيطاليا. فهمت حينها أنّه من عمل المافيا، بالطبع يريدون الباراتوكس من أجل بيعه مقابل السعر الأعلى للزبون الأفضل. آسفٌ لكَ يا صديقي.

استمرّت رحلتي حوالي سبعَ ساعاتٍ حتى اقتربتُ من قريةٍ صغيرةٍ تقع قربَ الجبل حيث كانت تلك الشاحنة السوداء الضخمةُ بانتظاري، ترجَّلْتُ من سيارةِ الإسعاف متّجهًا للشاحنةِ، وركبتُ. لم أرَ شيئًا في طريقي بسبب تلك القماشة قبيحةِ الرائحةِ التي أغمضوا بها عينَيَّ، ولم يمضِ من الوقتِ الكثير حتى استيقظتُ فزعًا لا أدري أين أنا، هل عبروا بيَ الحدود إلى ايطاليا؟ كم مضى من الوقت، كم الساعة الآن؟ لم أكن أرى شيئًا من الظُلمة وكأنّني لم أفتح عينَيَّ بعد.

قمتُ من مرقدي على الأرضِ متحسّسًا الجدار إلى يميني عساي أجدُ مفتاح الكهرباء كانت الأرض مبتلّةً وصوت خريرِ الماء يحاول جاهدًا أن يخبرني مكانه، صرختُ بصوتٍ عالٍ « أين أنتم، أين الصبي، لقد نفّذت الاتفاق» بالتأكيد لم أكن أتوقعُ ردًّا، لكنّي توقعتُ سماع صدى صوتي كي أقدّر حجم الغرفة، لحسن حظي حينها أن أصابعي وجدتُ مفتاحَ الكهرباءِ. كم تمنيتُ أن يكون فخًّا وأن تصيبني صاعقةٌ كهربيّةٌ تودي بحياتي للأبد، لكنّنا نعلم أنّها لم تكن كذلك، فقد أضيئت الغرفةُ، ويا ليتني صعِقْتُ بالكهرباء بدلًا من تلك الصاعقة التي حلّت عليّ.

كان ملاك متدنيًا من السقف من ساقيه إلى جانب زوجته وطفلته الصغيرة، مكمّمو الأفواه بمؤخرةِ الغرفةِ أمامي إلى جوار حوضِ الماءِ.

أمام ثلاثتهم بمنتصف الغرفة وضعت كاميرا للمراقبة على طاولةٍ صغيرةٍ عليها صندوقٌ متوسطُ الحجمِ يُستخدم عادةً لحفظ الأشياء الباردة لمنعها من التلف، وعلى الجدار ورائي كانت شاشةٌ تعرض أليكساندر وهو في تلك الغرفة فاقدَ الوعيِ.

أمعنتُ النظرَ في كل جوانب الغرفة لأتأكّدَ حينذاك أنّها ليست غرفةً عاديّةً، بدت كمأوىً من الأعاصير أو ربّما ملجأً جنودٍ من القصف النوويِّ. ماذا يُفتَرَضُ بي أن أفعل الآن؟

اقتربت من الطاولةِ لأصرخ في وجه الكاميرا «ماذا تريدون منّي، لقد نفّذت الاتفاق». توقّعتُ الردَّ هذه المرّةَ وكنتُ مصيبًا، فقد انقسمت شاشة العرض إلى قسمين، قسمٌ صغير مازال يعرض الكساندر، والآخر يعرض الردَّ على سؤالي بالإيطالية.

«افتح الصندوق».

لم أتردّد في تنفيذ الأمرِ، وأظنُّك تتوقَّع ماذا وجدتُ فيه. بلى، أنابيبُ زجاجيةٌ صغيرةٌ، تحوي كلٌّ منها نتاج سنواتٍ طوالٍ من البحث والتطوير.

«احقنه».

كالعبد المطيع لسيّده، انحنيتُ مطأطئَ الرأس وتناولتُ الحقنة كي أملأها. اقتربت ببطءٍ بينما أتذكر كلماتِك يا صديقي، ألهذا السبب حييت ولذاته ستموت؟



غرست الحقنة في عنقه، ونظرت للشاشة بانتظار الأوامر، ولم أجد شيئًا. اتّجهت للكاميرا وصرخت «ماذا الآن! أريد الصبي، أخرجوني من هنا» ليظهر على الشاشة مؤقتٌ يشير إلى ساعتين، لم أفهم حينها أنّهم يريدون مني الانتظار قبل أن أحقنه بجرعةٍ ثانيةٍ، فظللتُ أبحثُ كالمجنون في الغرفة على أيِّ شيء.

اتجّهت إلى ذلك الحوض لأُخرِس صوت خرير الماء الذي كان يقتل ما تبقى من أعصابي، لأجد فيه منشارًا يدويًا وسكاكين - وأدواتٍ يمكنك أن تتخيلها - محفورٌ على كلٍّ منها بخطٍ صغير «أنت تعلمُ كيف تستخدمني». سيرغموني على تعذيبِ صديقي الوحيد من أجل حياةِ ابني الوحيد.

عليّ خيانةُ أحدهما، هل أخونك يا بُني؟ لا ذنب لك من البداية في كل هذا، أم أخونك أنتَ يا صديقي الملاك، وكأنّك تنبّأت بهذا اليوم حينها، كنتَ تعلم أنّك ستموت بسبب الباراتوكس كما كنتَ تعلم أن هنالك من سيستغل الكساندر، بل ربّما كنتَ تتوقع أن يحدث الأمران معًا. أين أنتِ الآن يا جدتي لتخبريني كيف أتّخِذ قراري.

بالطبع حاولتُ الخروج، لكن كيف، لم يكن هنالك بابٌ بالغرفة من الأساس فجلستُ منتظرا حتى مرَّ الوقت لتظهر الأوامر الجديدة أمامي...

«فكَّ وثاقَ الطفلةِ وضعها على الأرض».

أنت تعلم الآن ماذا يريدون مني أن أفعله.



«أيقظه».

بالطبع، سيهدّدونه من خلالي لكي يحصلوا على المصل المضادّ، حاولتُ ضربه كي يستيقظ، لا شيء، نغزته بالسكين في يسراه، لم يستيقظ... بالتأكيد لم يكن ميتًا، لقد تأكّدتُ من أنَّ ثلاثتهم كانوا على قيدِ الحياةِ فور رؤيتي لهم.

بجانبِ الحوضِ كانت هنالك زجاجاتٌ بأحدها سائلٌ للتنظيف نفّاذُ الرائحة، ألقيتُ بقليلٍ منه على وجهه ليستيقظَ شاهقًا. لم أستطع الهربَ من عينه، أذكرُ نظرتَه كما أذكرُ اسمي، حاول صارخًا لكن حمدًا لله أنّ فاه كانَ مكمّمًا.

«اقتلِ الطفلة».

بالطبع، حقنتُها بالهواء بذاتِ الإبرةِ التي حقنتُ والدها بها، بينما يصرخُ صديقي من خلفي متأرجحًا، أنا آسفٌ يا صديقي، لقد كنتَ تعرف أنَّ هذا سيحدثُ لكِلَيْنا.

«احقنه بجرعةٍ أكبرَ في رأسه».

باكيًا قمتُ من جوار الطفلة لكي أملأ الحقنة بجرعتين من الباراتوكس متوجهًا إليه، أشَحْتُ بناظري كي لا أرى انعكاسَ صورتي في عينيه لأحقنه مرةً أخرى، بينما كانت صرخاته تتعالى محاوِلَةً الخروج.

لم أميّز كلماته، كان ذلك آخر ما يشغلُني حينها، هل كان يقول «ديميتري ماذا تفعل» أو «لم تفعل» أو ربّما «سأقتلك»، لم أميّز أيَّ

شيء مجدّدًا ظهر مؤقِّتٌ على الشاشة مجبرًا إيّايَ على الانتظار بينما ظلَّ صديقي يصرُخُ حتى فَقَدَ وعيه مرَّ الوقت ولم تبتعد عيناي عن الشاشة لمراقبة ما تبقّى لي في هذه الدنيا، يا ليتني استمعت لكلامك واخترت وظيفةً أخرى يا بُنيّ. ظهرت الأوامرُ الجديدة، حان الوقت إذًا لاستخدام ذلك المنشار. لم أشعر بشيءٍ وقتها حقًا، لقد مات كلُّ شيءٍ بداخلي بمجرّدِ أن قتلت الطفلة. تناولتُ المنشار وأطَلْتُ النظر فيه، بالطبع أعرفُ كيف أستخدمكم.

لسوءِ حظّي كان قد استيقظَ من غفوته قبل أن أبدأ بقطعِ ذراعه اليسرى بدأتُ بتحريكِ المنشار عند كتفه المتدلي للأسفل، يبدو أنّه فقدَ الوعيَ مرّةً أخرى، لا يُصدِر أيَّ صوتٍ، حسنًا سيسهِّلُ ذلك الأمر على كلينا بغضونِ دقائقَ كنتُ قد قطعتُ الذراع بالكامل وبينما كنتُ أستديرُ ناظرًا إلى الشاشة التقت عيناي بعينيه، كان مستيقظًا أطالَ النظرَ في عينَيَّ بنظرةٍ لم أفهمها، نظرتُ إلى الشاشة سريعًا لأجد لا شيءَ جديد قد ظهر حقنته بمادةٍ لإيقاف النزيف بينما لم يُشِح بناظره عن عيني.

«اقطع رأس السيّدة»

وكأنّني تعجّبتُ مثلًا، أنت تعلمُ أنّهم سيفعلون ذلك. أنزلت خليلةَ صديقي القديم على الأرض وبدأتُ بتنفيذِ الأمر وكان كمن تقبّل مصيره، لم يصرخ، لم يتأرجح، وكأنّه مات في أعماقه بالفعل. أنهيتُ التنفيذ، جثّتانِ وذراعٌ وبحرٌ من الدم على الأرض، ولم تتردّد عيناه عن النظر في عينيّ للحظة.

«احقنه بجرعةٍ أكبر»

لم أجرؤ على النقاش، أردت حقًّا أن أحقنه بكلِّ الجرعاتِ المتبقيّة مرةً واحدة، لكنّي تخطيتُ مرحلةَ التفكير منذ ساعات نفّذتُ الأمر مجددًا حاقناً إيّاه ليظهر الؤقت ذاته أمضيتُ الوقت في محاولةِ تنظيف الدماء كي أستطيع الجلوس واستكمال النظر في الشاشة لأرى كلَّ شيءٍ بقي لي على هذه الأرض. كان ملاك ينظرُ إليَّ بالفعل، كنت أشعر بنظراته تلك كسهامٍ ناريّةٍ تخترق ظهري لكنّي لم أقوَ على النظر إليه. مرَّ الوقت بطيئًا هذه المرة لأتلقّى الأوامر الجديدة.

أخذت المنشار مرّةً أخرى وبدأتُ بقطعِ ساقه وهو مستيقظٌ ناظرٌ إليّ. لم يعد يشعر بالألم على الإطلاق، بالفعل كما ظننت لقد مات من الداخل. ألقيتُ بالساق على كومةِ اللّحمِ بجوار حوض الماء وانتظرتُ الأوامرَ الجديدة.

«اجعله يتألّم»

كانَ ذلك الأمر ليكون سهلًا لو لم أكن حاولت بالفعل، لقد قطعتُ ساق الرجل وذراعه، ولم يصدر منه صوتٌ واحدٌ حتى، أرادوني أن أرتجل أو أستخدم خبرتي في مثل هذه المواقف. حسنًا فليكُن، فقد مات كلانا بالفعل يا صديقي. ذهبت للحوض لأرى ماذا لديّ هنا، أخذت مِشرطًا وكماشّةً من الحوض، وزجاجة حمضٍ بجانبه، وعدت لأنفّذَ الأمر.

بدأتُ بتحريك المشرطِ ببطءٍ غارسًا إيّاه بخدّه الأيسر مقتربًا من عينه التي لم يتحرك جفنها. استمرّت يمنايَ بتحريكِ المشرط حتى اقتلعت عينه. ولم يصدر منه صوتٌ على الإطلاق. لم أرَ شيئًا كهذا في حياتي، وكأنّني أقف أمام مسخٍ لا إنسان، أسرعتُ بسكب الحمض الحارق على جانب وجهه النازف، سيُصرِخه ذلك لا محالة... كلّا لم يصرخ، لم يرتدّ طرفُ عينه الأخرى إليه حتى بالتأكيد لن يتألّمَ أيضًا إن انتزعتُ من أسنانه، حاولتُ وأصاب حدسي، ومازالت عينه الباقية ترمقني بهذه النظرة الباردة.

«خذْ عيّنةً من دمه واخرج»

كان وقعُ هذه الكلمات على الشاشة كمن وجد الخلاص من الجحيم، بسرعةٍ وتلهّفٍ تناولتُ الإبرة ذاتها وأخذتُ من دمه وألقيتُ بها في الصندوق، لأجد أخيرًا أن فتحةً صغيرةً قد فُتحت من السقف ليتدلّى منها سلمٌ معدنيٌّ يأخذني للأعلى.

قصَّ صوتُ الباب شريطَ ذكرياتي، ودخل عليَّ ذلك الرجل. لم أتمكن من رؤيته، ربّما بسبب الظلام أو بسبب تلك الضربة الشديدة على مؤخرة رأسي التي جعلتني لا أرى غير الضباب. شعرتُ بأنفاسه تقتربُ من أذني ببطءٍ قبل أن أسمع صوته

- انظر في عيني! ماذا؟ ألا تتذكر؟ ربما لستُ وسيمًا كما كنتُ سابقًا، لكن أظنّك تذكر انظر في عيني وصف لي ماذا ترى! هل أنت خائف؟ أحسنت! أنت حقًا تجيد تقدير المواقف، باستثناء ذلك الذي جعلك أمامي الآن. لا يا عزيزي لا تبكِ الآن! ليس قبل أن أستمتع بك قليلا،

اطمئن، سأجعل ميتتك بطيئة ومذلة كما لم يتسنَّ لعقلك أن يتخيلها. يمكنك الآن أن تبكِ بينما ترى زوجتك تتوسل إليّ كي تقتلك هي بدلا من أن أقتل ابنكما.

لا أظنُّ كلماتي ستشفع لي الآن، آسفٌ يا جدتي، آسف يا بُني، لقد كنتَ محقًّا يا ملاك.

(٦)

الوبـــاء

بينما كنّا في الطائرة عائدين كانت الأفكار تتسابق برأسي كالخيل ما إن تظهر فكرة حتى تعتليها فكرة أخرى، ثمَّ أخرى. أمعنت النظر في أسماء أعضاء الفريق الطبي ذلك، ربما يكون أي شخص منهم بالفعل، فلا يعني بالضرورة أن ماركو هذا من فعلها لمجرد كونه إيطاليا. بالفعل أخبر صبري رجاله بتقصي خبره لا تكن ساذجا.

ماذا إن كانت له علاقة بمقتل ملاك حقا، هل سينتهي كلُّ هذا وحسب؟ بالتأكيد كان يعمل مع ملاك لمدّةٍ طويلة لربقا مكنته من معرفة كيفية صنع مصلٍ للباراتوكس، أو ربما توصل كذلك للباراتوكس المعدل وراثيا الذي طوره ملاك يا رجل يكاد عقلي يصدر دخانًا من كثرة التفكير.

- صبري. كنت قد أخبرتني أن تلك المرأة تريد مقابلتي هلّا رتبت لنا مقابلةً عندك في القناة؟

هر صبري رأسه بالموافقة واستدار ليكمل نومه، أما أنا فمستيقظ لك يا صديقي لدي بعض الوقت كي أقص عليك قصة أو ما شابه. لنز ما لدينا، ماذا تريد أن تعرف؟ أظنّك تعلم ما أعلمه حتى الآن ما بالك يا فتى تسأل كثيرا كرجال الصحافة الصفراء الذين لا أطيقهم!

بمناسبة الصحافة الصفراء، أذكر ذات مرّةٍ أنني اضطررت لزيارة أحد اصدقائي العاملين بالصحافة في إحدى مقاهي وسط القاهرة والتي أكرهها كثيرًا بالمناسبة - وكان حقا أحد أسوأ أيام حياتي إن لم يكن أسوءها على الإطلاق.

- صديقي. أين أنت؟.. سألني صديقي.

- في مكان قذرٍ مزدحم به الكثير من بائعي سقاعات المحمول الرديئة و المناديل المستعملة.

- حسنًا لقد وصلت إذًا، اقطع تذكرة وتوجه ناحية إحدى محطّات وسط البلد وسأكون بانتظارك.

- حسنًا.

أغلقت قبل أن تأخذ أقه من حسناتي وسألتُ أحد المارّةِ أين أقطع التذاكر فنظر إليَّ بنظرة سخريّةٍ واحتقار ثمَّ أشار إلى طابور عظيم طوله قبل أن يسارع بالركض وقفتُ خلف أحدهم في ذلك الطابور محاولا بلع لساني الذي بدأ يتلفّظ بأسوأ الكلمات.

- هل يمكنك أن تحضر لي تذكرةً معك؟ فأنا كما ترى مستعجل!

كان هذا كلام شابٍّ من اولئك الذين يرتدون البناطيل المقطّعة والتي تبرز بشكلٍ مثيرٍ للغثيان شعر ساقيه.



- لا.... كنت حقًا أريد أن ألكمَه في أنفه السخيف لكنّي تمالكت أعصابي.

بعد ثوانٍ اقتحم رجلٌ عجوزٌ اجتاز الستين من عمره الطابور، ثمَّ قطع تذكرة في وقاحة لم أر مثلها قطُّ، ثمَّ خرج من الطابور يسب الجميع. حسنًا ربما هو عامل السن الذي يجعلنا نحترم مثل اولئك البشر مُنتهي الصلاحية ثوانٍ أخرى قبل أن تقتحم فتاة الطابور لتقطع تذكرة من أمام الجميع متأفّفةً من كلِّ شيءٍ، حسنًا هي فتاة ولا يصح أن تنتظر مثلنا، فما تعانيه يوميًا يجعلها تستحق تلك الأسبقية. ثم تبعهما عجوز آخر واقتحم ذلك الطابور الذي كان قد أوشك على احتلالي مقدمته، وقدّم إلى قاطع التذاكر ورقة من فئة الألف. لم أتمالك نفسي حينئذٍ قبل أن أمسك ذلك الرجل من كتفه

- لا عليك يا جدّي، سأدفع لك لا داعي لذلك.

- لا شكرًا، أنا أريد الفكّة.

- أرجوك يا جدي دعني أدفع لك قبل أن يحدث لك شيءٌ لن تحبّه.

استجاب أخيرًا بعدما سمع صوت طحن أسناني بعضها بعضًا لأقف في مقدمة الصف أخيرًا حاصلا على ورقةٍ صفراء سخيفة. ذهبت بعد ذلك خلف الراكضين عند ماكينة المرور، سألت ذلك اللوح الخشبي إذا ما كان ذلك الاتجاه يؤدي إلى وسط البلد فأجاب الرجل الذي كان خلفي قائلًا

- نعم لا تقلق ستجد ألواحًا إرشادية.

اتجهتُ للسلّم الكهربي فوجدتُ ذلك الطابور مجددًا فذهبت على مضض الى الدرج الذي اعتادت ساقي أن تلعنه كثيرًا، كنت أستمع لأقدام الناس المهرولة حتى صدمني شاب في كتفي محاولا الإسراع ليلحق بالقطار بينما كان القطار يصرخ ليترك الناس أبوابه التي كانت تحاول الإغلاق يائسة ما بالكم يا حمقى! هذا لن يكون آخر قطارٍ في الكوكب! وقفت في انتظار القطار القادم والذي حسب قول العامّةِ أنه يصل بعد ٥ دقائق على الأكثر. وبينما كنت أتفقّد ساعةَ يدي لأجدها الثالثة عصرًا، كان ذلك الشاب صغير السنِّ يحاول مداعبة فتاته على المقعد الرخامي، ورجلٌ آخر يقف على حافّةِ الرصيف متجاوزًا ذلك الخطَّ الأصفر لينظرَ إلى اتجاه قدوم القطار.

«على الاستاذِ...... التوجُّهَ لنامرديك المحطّة»

تكرّرت هذه الجملة عدّة مراتٍ في مكبّرِ الصوت بطريقةٍ مفزعةٍ تتناسب تمامًا مع إنذار الحريق والإضاءة الحمراءَ التي ظننتها تدلُّ على أنَّ خطرًا ما سيودي بحياة كلِّ هؤلاء الناس نعم علمت وقتها أنّه إنذار قدومِ القطار على الرغم من مرور ربّما ٥ قطاراتٍ على الجانب الآخر فلم يأتِ القطار في اتجاهي إلّا بعد الخمسةِ دقائقَ السابعة وما إن جاء القطار حتى هجم الناس عليه كوحوشٍ عُزِلوا في بلدةٍ مهجورةٍ فاشتاقوا لطعم اللّحم البشري، حاولت الركوب وكيف عساي أركب وكلُّ اولئك الناس يدهس بعضهم بعضًا. لاحظت امرأةً تحاول الصعود فهممت لأساعدها، بالطبع سيفسحون الطريق، كلّا لم يفعلوا،

فقمتُ بدفع أحدهم وقلت بافتعال «أيعقل أنّ امرأةً مسنّةً لا تستطيع الركوب».

بعد دقيقةٍ كنت قد تمكّنتُ من الدخول في وسط هذا الزحام القذر بينما تأبى الأبواب أن تغلق إلّا بعد مرور خمسة دقائق أخرى لأبدأ طريقي وسط كلّ اولئك الطلاب العائدين من مدارسهم، وذلك الشاب يستمع لبعض المهرجانات الشعبيّة، وهذه امرأة فقدت زوجها و تعول خمسة عشر طفلًا ربّما، وهذا يبيع أداة تقشير البازلاء، وهذا يستمر في السعال وآخر يصيح في هاتفه الرخيص. كانت رحلةً طويلةً حقًا رغم أن الساعة كانت ماتزال الرابعة عصرًا عندما وصلت إلى ذلك المقهى لأجد صديقي ذلك ينتظرني.

- اعذرني على مشقة الطريق تلك، أنا أعلم أنك لم تعتد ركوب المواصلات العامة من قبل.

- لا عليك، كيف حالك أنت في وظيفتك تلك.

- كما تعلم، الصحافة مهنة ليست سهلة.

بالطبع، فترويج الشائعات لا يوجد أصعب منه.

- ها ها ها، سأتقبل مزاحك لأنني أحتاج منك بعض المعلومات لا أكثر.

- قلت متهكّمًا .. وبالتأكيد قبول بعض التنازلات من أساسيات مهنتك.

- لن أستطيع مجاراتك في السخف حقًا.. طلب فنجانين من القهوة الرديئة ثم استطرد

- صديقي أريد منك بعض المعلومات عن كما تعلم، شقيقك رحمه الله، فأنت تعلم أنَّ مقتله سبب رعبًا في ربوع الوطن.

- ماذا تريد أن تعرف تحديدًا؟

- كل شيءٍ بخصوص اكتشافه العلمي ذلك... قال ذلك بينما يشغل المسجل الصوتي.

- حسنًا لا أعلم إن كنت ستفهم لكن....

- ضاحكًا قال: لن أسلم منك اليوم....

وبعدما سردت له كل التفاصيل التي أعرفها وتعرفها أنت، سألني إن كنت أريد إضافة شيء آخر فنفيت و شربنا القهوة ثم عدت طريقي بسيارة أجرة بالطبع، فلست مختلا كي أكثر خطأي السابق.

وغدا سأقابل أحد العاملين بالصحافة أيضا لتسألني أسئلة لا نهاية لها. ماذا برأيك تريد تلك المرأة أن تعرف؟ معلومات بخصوص ديميتري كي تنشرها في سبق صحفي وتصبح ذات صيت؟ كلّا لا أظنُّ صبري سيوضّف شخصًا وصوليًا، ليس من السهل أن يحوز أحدهم على ثقة هذا الرجل، أنت لا تعرفه كما أعرفه أنا. لا للتكهنات داعي إذًا، فإنَّ غدًا ليس ببعيد، ربّما سأنعم بساعةٍ أو اثنتين من النوم حتى نصل ونعرف ماذا تريد تلك السيدة أن تعرف.

***

وصل كلٌّ منّا لبيته، بالطبع لا مجال للنوم هنا فأمامنا الكثير لننجزه. كنت قد أخذت عينةً من جسم ديميتري، حمدًا لله أَنه كان مجمّدًا في ذلك الجدول، على الأقل لم تتعفّن جثته، لا يمكنني الجزم حقًّا بوقت وفاته، ربّما مضى عام على وجوده مجمّدًا أو ربّما عامين أو شهرين، لا أعلم يا رجل، أنا لست الطبيب الشرعي هنا، كفاك جدالاً يا رجل، لقد كنتَ معنا بالفعل، لم يخبرني أحدٌ بوقت وفاته.

- جوليا، هلّا فحصت تلك العينة رجاءً؟

- بالتأكيد، من أين جئت بها على كل حال؟

- من ما تبقى من أصابع ذلك اللعين الذي قتل ملاك. ابحثي فقط عن أي أثر للباراتوكس وقارني النتائج بالسجلات التي لدينا ريثما أنته مما أفعل.

تركت العينة لجوليا كي تفحصها وذهبت إلى المطبخ بآخر الطرقة حيث ماكينة القهوة. وقفت ناظرا في تلك الصورة الصغيرة بجانب ماكينة القهوة، صورة عائلية جميلة يتوسطها ملاك مرتديا بزة التخرج من الجامعة. يقف أبي على يمينه مرتديا رداءه الطبي ونظاراته الدائرية ذات الإطار الذهبي، وتقف أمي على يساره بذات الرداء وابتسامتها تطغى على كل شيء، وفي طرف الصورة الأيمن أقف مرتديا نظارتي التي كنت أكرهها بشدة آنذاك ممسكا بيد ليلى التي كانت بالكاد تستطيع . الوقوف. نظرت إلى انعكاس وجهي بزجاج المطبخ ولم أستطع منع

نفسي من تأمل الفارق بين الصورة التي في يسراي وبين ما أصبحتُ عليه الآن. تغيّر وجهي كثيرا لكنّي لم أكن وسيما على أي حال الكثير من التجاعيد هنا وهناك شعر أشعث وذقن اختلط سوادها ببياضها، وهذه الندبة في مقدمة رأسي. تحسستُ تلك الندبة وانا انظر إلى صورة عائلتي لا أذكر متى كان ذلك اليوم حقا، ربما كان يومًا مشمسًا كتلك الأيام الصيفية المعتادة، برياح جافّةٍ ساخنة تلفح الوجوه أو ربما أيضًا كانت ليلةً شتويّةً ظلماء، يُسمَع فيها عواء الكلاب وعويل القطط التي لا تجد لها ملجأ يسترها من صقيع الشتاء ربّما ما كان ذلك ولا ذاك، ربّما كان يومًا عاديًّا ولكنّي فقط لا أتذكره.

فقط أتذكّر أنّي قمتُ متأخرًا كعادتي محاولا أن أرى. يبدو أنني لم أذكر أنني أعاني مشكلةً في عيني اليسرى التي ورغم إعجاب الكثيرين بها كنت أرى دومًا بقعةً سوداء ليست صغيرة، بحيث تصعب علي الرؤية قليلًا بمجرد أن أستيقظ من النوم.

حاولت جاهدًا القيام لأنادي «ليلى» لتُعّدَ لي فنجاني المعتاد، لكن لوهلةٍ ظننت أنَّ أحدًا لن يجيب، قمتُ مترنّحًا كمن شرب لتراتٍ من الخمر وما هو بسكّير. حاولت الوصول لباب الغرفة وانا أشتم رائحةً لم تعتدها أنفي. خرجت وظللت أترنّح حتى بلغتُ الصالة التي اعتادت أمّي المريضة آنذاك الجلوس فيها أمام التلفاز مجاورة شقيقتي الصغرى التي حقًّا مرَّت بشهور عصيبة جرّاء مرض أمي وإصابة أبي بالصرع.

كان صوت التلفاز عال بشكل مزعج لم نعتد عليه وكأن امي تشاهد فيلما اجنبيا مليئاً بالحركة على غير عادتها. حاولتُ مناداة ليلى ولكن صوتي استعصى وأبى. بلغت ذلك المنحنى الذي يسبق الصالة وحاولت أن أبدو غاضبًا قدر استطاعتي لأن أحدًا لم يوقظني أو يُعِدَّ لي القهوة.

- ليلى!.....بصعوبة ناديت وكأنّ صوتي رفض الخنوع هذه المرّة. ...... أنا أعلم أنك مجهدة ولكن لماذا لم توقظيني! هل كان ذلك صعبًا لهذه الدرجة!

كنت أقترب بشدّةٍ من الصالة ويبدو أنها لم تكن تسمعني من شدّة ارتفاع صوت التلفاز الذي كان اشتد به الضرب والحركة وإطلاق النيران. تأففت مواصلا السير حتى بلغتُ الصالة أخيرًا.

اختفى صوتي واختفت كل التعبيرات والمشاعر التي كانت تعتلي وجهي الذي كان يتصنّع الغضب...

- لي......

لم يسعفني لساني، لم أستطع النطق، ظننت لوهلة أنّني فقدت القدرة على الكلام، وفقدت كذلك الرؤية، فأظلمت الدنيا أمام عيني أكثر ممّا كانت مظلمةً الأساس. من رأيت أبي الذي كان فقد جزءًا من صوابه، ورأسه بين كتفيها، كنت أظنّه يبكي أو يشكو لها هما من تلك التي اخترقت وعية، لكن سرعان ما رفع رأسه، ليظهر وجهه المغطى بالدماء

واللحم تتقدّر الدماء من لحيته البيضاء كثيفة الشعر، تمامًا كاختلاط الجليد بالدماء الحية الدافئة.

بابتسامةٍ بلهاءَ لا تدل علي أي مشاعر على الإطلاق، ابتسامةٍ لا تحمل معنى ولا مغزى وظهر وجه أمّي عندما غرس رأسه مرة أخرى، تبكي بغير صوتٍ او حتى همهمات ألم، بغير إحساس، وجه جامد لا مشاعر فيه، بينما بلّلت دموعها الغزيرة وجه ذلك الوحش الذي كان يلتهم لحمها كمن صام الدهر كله، لم أستفق من تلك الغفوة إلاّ على صوت إطلاق ليلى لرصاصة اخترقت دماغه لتستقر في صدر أبي، فقط قبل أن تطلق ليلى رصاصةً أخرى و هي تبتسم ابتسامةً عرفت أنّها ستكون ابتسامتها الأخيرة، واختفت عيناها من كثرة الدموع فيهما.

لم أحرّك ساكنًا، فقط ظللت فارها فمي صدمت رأسي في الجدار عساه حلمًا مزعجًا، نعم كنت أعرف أنه حلمٌ سيء كعادة أغلب أحلامي. ظللت أرتطم بالحائط مراأً وتكرارًا، نعم هو كابوش سخيف نتيجة الإفراط في القهوة، وأرطم رأسي، ليس هذا إلّا كابوس، لم آبه لذلك التصدّع الذي ملأ رأسي فاستمريت بما أفعل، اعتراني شعور بالرغبة الملحة في البكاء، ليس بسبب رأسي الذي بدأت الدماء تتسابق للخروج منه، لكن لأني أيقنت بأني لم أكن أحلم.

ربّما كانت تلك أول مرّةٍ أبكي فيها، كطفل تاه عن أمه وسط زحام تملؤه السيقان التي لم يعتد عليها، والمارة أبدًا لا يرونه بالكاد يتفادى هو الاصطدام بهم، باكيًا خائفًا يخشى الناس جميعًا. استيقظت يومها على وجه صبري الذي لم أكن أحبه. أدركت بعد قليل أنّني في

المستشفى الخاصة بالعائلة والتي يمتلكها «ملاك» او بمعنى آخر كان يمتلكها.

- يؤسفني ما حدث للعائلة، لقد رأينا ما سجلته الكاميرات وصدمنا جميعا من قبح ما حدث.

لم أجبه بكلمةٍ، ليس لأنّ رأسي مضمّد بشدّةٍ، ولكن لأنّي أعلم تمامًا ما حدث، أدرك أن أحدًا قام بقتلهم شخص فكَ وثاق أبي الخرف ليلتهم أمّي. أو هكذا كنت أظنُّ.

- لقد تركت لك «ليلى» ورقةً لم أُرِدْ أن أفتحها. خذها.

ليلى طفلتي التي لم أنجبها، أردت البكاء بشدّة لكنّي لم أكن أقوى حتى على الهمهمة. تناولت الورقة وفتحتها لأقرأ آخر ما كتبته أصابعها الصغيرة.

«عزيزي! سأشتاق إليك كثيرًا ولقهوتك السخيفة وشخصيتك المتعنتة المتسلّطة الكسولة! أريد حقًّا أن أضمّك وأنا أسطر تلك الورقة لكنّي سأكتفي بما ستقرأه. لم يكتب ملاك كل ممتلكاته باسمي. لقد ترك كل شيء لك، لم يرد والدانا تنفيذ وصيّته ظناً منهما أنك لا تستحقها، خدعتك أنا آسفة حقًّا. كنت أدرك أن نهايتي قريبة خاصّةً بعدما أصاب والدينا هذا المرض الخبيث تركتُ لك وصيته تحت طاولتك في الحديقة. أحبُّك. وداعًا»

- أنا آسفة لك.



- كلا لست كذلك، أنتِ آليةٌ يا جوليا، لا مشاعر لك حتى تأسفي.

- أعلم ذلك، لكنّك برمجتني هكذا، كلّما رأيتك تبكي، أواسيك بكلماتٍ أفهم معناها رغم أني لا أستطيع الشعور بها.

حقا؟ لا اتذكر ذلك، هل أنهيت فحص تلك العينة؟

- بالفعل، ستجد النتائج على الحاسوب.

- حسنا، جهزي أحد القرود ريثما أفحص هذه النتائج.

وضعت الصورة من يدي وأخذت فنجان القهوة - الذي برد بالفعل - إلى مكتبي الخاص في القاعة الرئيسية لألقي نظرة على نتائج ديميتري. كما توقعنا، الحمض النووي للباراتوكس في جسده.

أنهيت قهوتي الباردة وتوجهت لغرفة العمليات حيث جهزّت لي جوليا ذلك القرد المسكين كي أحقنه بالباراتوكس عله يطوّر أجساما مضادة، على الأرجح لن يفعل وسيموت بعد أن يفقد صوابه أو يأكل جزءا من جسده وينزف حتى الموت فأعراض الباراتوكس يا صديقي ليست واحدة عند الجميع، انت وحظك، ربما فقدت عقلك، ربما فقدت أحد حواسك، ربما فقدت القدرة على الحركة او الكلام، أو ربما كنت محظوظا كفاية كي تموت.

هي غرفة ليست كتلك الغرف التي تراها في الأفلام، يفتح الباب تلقائيا عندما اقترب انا او جوليا منه، لتدخل في غرفة تعقيم حيث تجد تلك البزة الواقية كإجراء احترازي فقط، كلانا يعلم أن الباراتوكس لا ينتقل

إلا بالاتصال المباشر، لكن من يعلم، ربما تحدث له طفرة ما. نجد على اليمين بابا صغير الحجم مقارنة بذلك الباب المزدوج في الأمام - والذي أظنك توقعت بالفعل أنه باب غرفة العمليات، فكل غرف العمليات لها باب مزدوج. أما الباب الصغير فيؤدّي إلى غرفة التحكم التي لا يفصل بينها وبين غرفة العمليات إلا جدار زجاجي شفاف. غرفة تقليدية بها مكتب كبير الحجم يتوسطه جهاز الحاسوب المتحكم في غرفة العمليات.

يفتح الباب المزدوج تلقائيا لنجد أنفسنا ها هنا، حيث فحصت مئات الجثث على اليمين تجد ذلك الجدار الزجاجي وعلى اليسار ترى حوض غسل اليدين ودولاب مواد التنظيف وآخر لأدوات التشريح. خطوات قليلة للأمام حتى نصبح في نهاية الغرفة، حيث يرقد القرد المسكين على سرير العمليات على يمين السرير وبجوار دولاب أدوات التشريح ستجد أكثر شيء لا يلائم هذا المكان بيانو احسنت، هذا البناء شاهق الطول عظيم التصميم بكل ما فيه كان ملكا لأخي منذ البداية وقد ورثته بعد ذلك اليوم.

أذكر أنّي خرجت من المستشفى ذلك اليوم هائما على وجهي أخشى العودة إلى المنزل، ما كنت لاستطيع العيش هناك مرة أخرى بعد أن رأيت ما رأيت لكن كان لابد لي من الذهاب حتى آخذ وصيّة أخي وأهجر البيت بلا رجعة. وكذلك فعلت، أخذت الوصية من مكانها بالحديقة حيث وضعتها ليلى، وخرجت دون الدخول إلى المنزل. أخذت سيارتي وذهبت إلى قصره في قلب العاصمة - قبل أن يصبح متحفا أثريا لتخليد ذكراه - باحثا عن بعض الأغراض التي ذكرها في

وصيته، لم تكن أغراضا كبيرة الحجم كما خُيّل لك الآن، بل حقيبة متوسطة الحجم وضعها في خزانة ملابسة مستخدما المفتاح الذي تركه في الظرف ذاته الذي كان يحوي الوصية دخلت القصر وفتحت الحقيبة كلّا لم أجد بها الباراتوكس يا عبقري، بل وجدت بها هاتفا متصلا مباشرة بالقمر الصناعي، ومجموعة من المفاتيح لأحدها تصميم غريب وكأنه ليس مفتاحا بل أداة تحكم عن بعد كمفتاح السيارة، والحاسوب المحمول الذي أحمله معي في كل مكان.

أحسنت، كانت هذه المفاتيح الخاصة بهذا المبنى، لكن لم يكن الباراتوكس هنا أيضًا، لا أقصد تشويقك لكن حقًا لم يكن هنا. لم أكتشف وجوده من الأساس إلّا بعد قرابة العام الكامل من وفاته. حين فقدت الاتصال بسلمى حتى أيقنت أنها بالتأكيد ماتت بسبب انتشار الباراتوكس في استراليا. عدت حينها أجر ذكراي مع سلمى إلى معملي القديم حيث وطأته أقدامنا معًا لأول مرّةٍ قبلها بعام كامل. فتحت الباب وأخذت الطابق السفلي حيث قضينا أول يوم سويًّاها هنا رافق صوت أزيز الدرج وقع خطواتي اليائسة حتى سمعت ذلك الصوت. صوت جرس خفيف يصدر من ذلك الباب بلى، هو الباب الذي لم يكن له مقبض أو مسار للمفتاح. أخرجت مفاتيحي على الفور لأجد ذلك المفتاح غريب الشكل يضيء بالأخضر، ضغطت زر الفتح ليفتح أمامي الباب لم يكن باب غرفة، بل كانت ثلاجة لحفظ الباراتوكس.

ألهذا السبب أهداني المعمل القديم يومها؟ أبرأيك كان يعرف أن نهايته قريبة إلى هذه الدرجة؟ لم يكن قرارا ذكيا على الإطلاق يا أخي ما كان ليحدث كل هذا لو اخترت طريقا آخر.

(٧)

الحرب الفرنسية

عبد الله كوناتيه

كان أبي لاجئًا من إفريقيا الوسطى، هرب هو و أمّي الحُبلى في آنذاك و معهما إخوتي الخمسة عبروا الصحراء في سيارات تحمل البهائم، عبروا البحر مع العشرات من أمثالهم الفارين من الأوطان، لم يكن زملاؤهم محظوظين كما كان والداي فقد مات الجميع، غرق منهم من غرق والبقيّة إما احترق بشمس الصحراء أو لم يتحمّل الجوع أو التعب و مات بهذه البساطة، لم يصل إلى هنا إلّا أبي و أمّي وأنا في أحشائها، أمّا البقية فقد ماتوا. عملت أمي خادمةً في منازل البيض، كنت أرى كدمات على وجهها كلّما عادت إلى البيت، و عمل أبي كماسح أحذيةٍ متجوّل، يعود إلى المنزل كل ليلة بينما اصطنع النوم، لم أكن محظوظًا كفايةً لكي أدخل المدرسة مثلك، فبمجرد أن أتممت السادسة حتى نزلت مع أبي لمسح الأحذية، نعود للمنزل قبيل انتصاف الليل لنجد أمّي نائمة على وسادتها المبتلة، رغيفًا واحدًا من الخبز كان يفترض أن يكفيني أنا وأبي، كنت أشفق عليه حينما يقصُّ عليَّ كيف عانى هو وأمي في رحلة هروبهما إلى هنا.

هل كان الوضع بذلك السوء حقًّا؟ أتساءل لا أستنكر، كيف يمكن لوضع في العالم أن يكون أسوأ ممّا نحن فيه الآن وإلى متى علي أن أمسح الأحذية بينما ينعتني اولئك الأوغاد باللاجئ الزنجي، إلى متى علي

تحمل تلك الإهانات بالتأكيد والدي كان يعرف، كان ينظر مبتسمًا لهم بينما يتمُّ البصق علينا في الشوارع.

كم كرهت ضعفه وذلّه وانبطاحه، كم كرهت أن أرى أمّي تعود كلَّ يومٍ لا تقوى على الحركة حتى الصباح، كم كرهت رؤية وجوه الأوغاد يلقون بالفرانكات على الأرض بينما أمسح أحذيتهم فيسارع أبي ليحصل عليها. ما زلت أذكر ذلك اليوم عندما ركض أبي خلف ورقة نقديّة أخدها الهواء بعيدًا، ناديت عليه ولا أظنّه سمعني، ولم يعد حتى وجدني ملقى على الأرض غارقًا مع أحد الصبية في بركة اختلطت فيها دمائي بدمائه. وبّخنى أبي بشدّةٍ فقد كدت أتسبب في طردنا من البلاد، ساعات وساعات من النواح و العويل

«تايو، إذا نظر لك رجلٌ أبيض في عينيك، فلتنظر مباشرةً في الأرض. تايو! لا نريد استفزازهم، قد يعيدونا إلى الجحيم مرّةً أخرى»

يجرؤ على التحدُّثِ عن الجحيم وكأننا في النعيم، ذلك النعيم الذي تضرّع أبي لجلاديه كي يبقوه فيه كم كرهت ذلك النعيم، كرهته بقدر كراهيتي لكل وغدٍ يرفع ساقه واضعًا حذاءه أمام وجهي، وكلّما كبرتُ عامًا كبرت كراهيتي لذلك النعيم عشرًا.

في تلك الفترة كنت أمسح الأحذية مع أبي طيلة ساعات النهار منتظرًا أن يقوم أحد هؤلاء الأوغاد بأي فعل يغضبني، صغيرًا كان أو عظيمًا، سواء كان قد بصق او نعتني بالزنجي الحقير أو حتى نظر لي نظرةً لم تعجبني أثناء مسحي لحذائه، فأرسل أحد الرفقاء ليتتبعه وفي الليل نفعل فيه ما نفعل أصبح يروقني هذا العمل أكثر مما سبق، فقد كنت

غالبا أبرح هؤلاء البيض ضربًا حتى يهوون على الأرض وآخذ - مع رفاقي - كل ما يملكون وننفق ما حصلنا عليه كما نشاء في إحدى الحانات الرخيصة تلك.

عدت كانت تلك السنوات أفضل من سابقتها، حتى ذلك اليوم كنت قد أتممتُ عامي الثامن عشر حينها، خرجت مع بعض الرفاق في إحدى الحانات الرخيصة وقضينا وقتًا ممتعًا، كان ذلك ليصبح أسعد أيام حياتي لو لم أعد إلى المنزل، لكنّي - وكعادتهما - كانا يتشاجران، لا تريد أمي أن تكمل في عملها كخادمةٍ في المنازل، فهي ترى أنّها أصبحت لا تقوى على ذلك، لكنَّ أبي يُصرُ أنَّ عملها يساعد بشكلٍ كبيرٍ في استمرارنا على قيد الحياة، انفجرت أمّي في البكاء، لم تكن تعلم بوجودي فصراخهما قد غطى على صوت الباب. بصعوبةٍ استطعت تمييز كلماتها، كذلك كان أبي عندما احتضنها باكيًا ليختلط شهيقها بنواحه، أغلقت الباب خلفي وذهبت وحدي لذلك المنزل حيث اعتادت أمي أن تمسح الأرضيات منذ أن وطأت قدمها هذا النعيم. لم أشعر بشيءٍ، لم أشعر حتى بالنصر أو الانتقام، أردت البكاء والنيران حولي تلتهم هذا المنزل الكبير، عدت أدراجي متسائلًا، أما آن لهذا النعيم أن ينتهي؟

لم أعد للبيت تلك الليلة، بل اتجهت للحانة الوضيعة التي اعتدت الذهاب إليها، لأستيقظ فَزِعًا على نداء أحد رفقائي، كان وجهه ينطق بكلّ شيءٍ

« تايو .... أقك .... يجب أن ترى ذلك بنفسك»



مكذِّبًا عقلي ذهبت لأراها، كانت غارقةً في دمائها، يحتضنها أبي صارخًا ومن حوله كلُّ رجال الشرطة قبل أن يخرج الجميع إلا أربعتنا، والدي، الشرطي، وذلك الرجل الذي لم يبعد نظره عن جنّة أمّي.

بالتأكيد يا حضرة الضابط، كانت الخادمة الخاصة بأسرتي، وكانت تسببت في حريق بالمنزل ليلة أمس نتيجة إهمالها، حمدًا لله أن أحدًا لم يكن بالمنزل

- ولماذا جئت إلى هنا؟

- جئت لكي أعطيها ما تبقى من مستحقاتها، لقد عملت هذه السيّدة لديَّ لأكثر من خمسة عشر عام وتستحق التقدير حتى وإن تسبّبت بحرق منزلي بإهمالها، وجدت الباب مفتوحًا لأدخل وأجدها غارقةً في دمائها بهذا الشكل.

- وبم تفسر وجود سلاحك الشخصي في يدها؟ - لا أعلم، ربما سرَقَتهُ من المنزل ليلة أمس. فكما تعلم، هذا ما يفعله الزنوج عادةً، يسرقونك بعد أن تفتح لهم بابك وتزيدهم من الخيرات والنعيم

- إذًا فأنت تنفي تورطك ؟

- بالتأكيد يا سيدي، أتيتُ لأعطيها مكافأة لنهاية الخدمة، أظنّها من حق أسرتها الآن.

- أنت يا ماسح الأحذية، هل لديك ما تقوله؟



- كلا يا حضرة الضابط، شكرًا لك. شكرًا لك أيضًا سيّد «ميشيل»

- إذا أنت لا تتهم أحدًا؟

- كلا يا سيّدي، يبدو أنها قتلت نفسها بالفعل.

سيّد ميشيل، يمكنك أن تأخذ سلاحك الناري الآن، كما يبدو أن الجميع هنا متفق على روايتك للأحداث، يا ماسح الأحذية، «ماسوندو» كفَّ عن البكاء وخذ المال، لقد تعبت هذه المرأة المسكينة من أجلكما.

مرَّ هذا الحوار أمام ناظري، لم أشعر بشيءٍ وأنا أنتزع سلاح ذلك الرجل لأضع حدا لهذا الهراء، ثلاث طلقاتٍ كانت كافيةً ليسقط الجميع غرقى في بركةٍ من الدماء، كما كانت كفيلةً أيضًا باقتحام الشرطة للمكان. لم أشعر بركلات رجال الشرطة لم آبه لهم كنت فقط أطيل النظر لعيني أبي يصارع الموت محتضنا حقيبة المال تلك، اختلطت دماؤه بدماء جنّة أمّي التي لم تكد تجفُّ، أراك اكتفيت من النعيم يا أبي، والآن فلتذهب للجحيم. ولئن سألتني عمّا إذا كنت قد ندمت بالطبع يا رجل، لم أعد ذلك الفتى المتهوّر من أربعين سنة، بالطبع ما كان ينبغي لي أن أقتل ذلك الشرطي.

كانت هذه كلماتُ صديقي الجديد ماسوندو، اسمه تايو ماسوندو، تشاركنا الزنزانة نفسها لمدة قصيرة نسبيًا كان فيها بمثابة أخي الكبير، وكنت له كما كنت للكثير من قومي، ربّما يبالغون كثيرًا في وصفي بالمخلص، لكنني على استحياء قبلت هذا الوصف وكما تعلم - أو ربما

لا أتمنى لك أن تعلم - فعندما تدخل السجن أوّل مرة يحاول الكثير هنا مواساتك بأن يقصّوا عليك قصصهم، كم سنةً قضوا، أي جرائم ارتكبوا، وأشياء من المفترض أن تجعل من سنوات سجنك أهون عليك وعندما سألني صديقي الجديد - آنذاك - عن سبب وجودي هنا، كان حقًا عليَّ أن أقص عليه كما قصَّ عليَّ.

أذكر حصّة التاريخ تلك عندما أوقفني المعلم سائلًا إيّاي:

- أنت، الفتى الزنجي، نعم أنت قف. ما اسمك. تحمّلتُ نظراتِ الجميع ممن حولي، وأجبت بصوت مرتعشٍ

- عبدالله محمد موسى كوناتيه

لا أعلم لماذا ضحك ذلك الفتى الأشقر في أول الفصل او لماذا بكت تلك الفتاة هناك، لكنّي أذكر رد معلمي.

- يا إلهي ستواجه وقتًا عصيبًا يا فتى، لست فقط زنجيًا، بل أنت مسلمٌ أيضًا.

وسط ضحكاتِ الجميع حاولت بلع لساني الذي رفض وانطلق كفرس سقط قضمت لجامها لتنطلق دون رادع

- لقد خلقني الله ،زنجيًا، إن كان لديك اعتراض على ذلك يمكنك أن تتقدّم له بالشكوى، ولا تنس أن تُرفقَ شكواك هذه بشكوى أخرى تخص كونه خلقك غبيًا.

رأيت زملائي حينذاك يصرخون ضحكا، بينما وقف الأستاذ ليذيقني عصاه فطفل في العاشرة من عمره جعل منه أضحوكةً بين الأطفال، لكن كان ذلك ممنوعًا في مدرستنا تلك كانت أيامًا اختلطت فيها السعادة بالحزن.

عرفت معنى الحزن أوّل مرة عندما مات أبي، كان رجلًا عظيمًا، تحمّل الكثير حتى أصل لهذا المكان، لا ليس السجن، ستعرف لاحقًا أين أنا الآن. المهم، هاجرتُ مع أبي وأمي و شقيقتي عندما كنت في سنّ صغيرة جدًا، فالوضع في مالي - وطني - لم يكن جيدًا كما قال أبي وقتئذ، فنحن أسرة متوسطة، كان يعمل أبي موظفًا في أحد البنوك، و حصل على فرصة للعمل في فرع لذلك البنك في مدينة مارسيليا، من كان ليرفض ذلك العرض على أي حال؟ وكما كنا في الوطن أصبحنا في المهجر، أسرة متوسطة الحال من خمسة أفراد، موظف في مصرف كبير ربّةٌ منزل و فتاتان في سن الزواج، وطفل كانوا يسقونه النابغة.

أحببتُ القراءة بشكلٍ كبيرٍ، ساعدني في ذلك أبي، قرأت الكثير و الكثير عن وطني الذي لم أعش فيه، وقرأتُ عن البلد الجديد - الذي لم أحب مناداته بالوطن - وعن تاريخه الملوث بدماء البشر، ملايين لا تعدُّ ولا تحصى هنا وهناك. سألت أبي يومئذٍ عن سبب وجودنا في بلد قتلت - على حد قوله هو - عشرة أضعاف عدد سكانها الحاليين، لم أقتنع بإجابته في البداية، رأيتها دبلوماسيّةً إلى حدٍّ كبير، « نحن لا نُسأل عمّن سبقونا، لكنَّ لنا أن نعيش حياةً نرضى بها، ونرضي بها ربنا دبلوماسية، أليست كذلك؟ بالطبع نحن لا نُسأل عمّن سبقونا، لكن بالتأكيد نضع ذلك في الاعتبار، رحمك الله يا أبي، كنت خطيبًا مفوّها،

أحببتُ الخطابة بسببك، أذكر كيف كان يكتظُ المسجد كلَّ جمعةٍ بسببك، يأتي الجميع من أقصى البلاد لأنّك الوحيد من يخطب باللغة العربيّة، كم أشتاقُ إليك يا رجل. أذكر يوم تخرجي في مدرسة الحقوق، كان يبكي فخورا، ولم لا؟ فلقد كنتُ الأوّل على دفعتي، وكنت الأسود الوحيد بينهم كان ذلك انتصارًا - ربّما - لقومي و لمنطقتي التي عشت فيها. كان عمري حينذاك إحدى وعشرون سنة، ولتوه ترك أبي عمله - أو أجبر على تركه، فقد رأى أنه حان الوقت لينشغل بشيءٍ آخر أكثر أهميّةً.

لم تكن سنوات عملي الثلاثة - كمحام مدافع عن حقوق المهاجرين - هادئةً على الإطلاق، هذا فرنسي أسود متّهم في جريمة يعلم الجميع أنه لم يرتكبها، وهذا رجلٌ فُصِل من العمل بسبب قوانين النزعة الانفصالية الجديدة، وهذه فتاة يبتزها صاحب العمل حتى لا يتم ترحيلها، وهذا وذاك، قائمةٌ لم تنته إلا بانتهاء عملي في المحاماة.

أخبرني أبي بينما تصعد روحه إلى بارئها «لا تنس يا عبدالله أنك عبد الله فقط» كان ذلك يوم الجمعة، وقد مات لتوه شيخ المسجد، لملمتُ شتات نفسي بينما أمر من بين المصلين الحزاني الجالسين في طريقي للمنبر، كان المسجد مكتظًا بشكل لم أعتد عليه، فلقد علم الجميع أنّ الشيخ محمّدًا قد مات، وكيف لا يأتون؟ فقد علّمهم كلَّ شيءٍ، قص عليهم ما لم يقصصه عليهم أحدٌ من قبل، رأوا فيه أبًا وأخًا ومثالا صالحًا. صعدت المنبر وتركت العنان للساني، لقد مات من جعلك ما أنتَ عليه اليوم، فاجعل من يوم موته ذكرى لا تنسى. لم

يخذلني لساني، واستحق أبي يومئذٍ تلك الجنازة التي حضرها الجميع، ليس فقط ذوي الأصول غير الفرنسية.

جمعة تلت الجمعة والمسجد مكتظ عن آخره، لم اختلف عن أبي إلّا في شيءٍ واحد، لم أكن دبلوماسيًا كما كان هو كنت أتحدث عن القوانين العنصرية الظالمة، والمحاولات الدائمة من الحكومة الفرنسية للتضييق علينا بينما تدّعي للعالم أنها بلدٌ للحريات، لا عجب أنّ الشرطة كانت تحاوط المسجد أثناء الجمعة، لا لشيء إلّا تأمين الناس، فقد كان يصل عدد المصلين للمئات بل ربما الآلاف.

أخذتُ بنصيحة أحد أصدقائي ودخلت مجال السياسة، فأنا في الأساس رجل قانون يحفظ القانون الفرنسي كما تحفظ أنت اسمك، أسسنا حزبًا معتدلا يقوم في الأساس على العدالة والمساواة بين كلّ الفرنسيين، مطالبًا بحقوقنا - نحن الفرنسيون من ذوي الأصول غير الفرنسية - في العمل وفي التعليم وفي احترام عقائدنا المختلفة في المأكل والملبس وفي أماكن العمل. وفي الانتخابات النيابية كان ذلك نصرًا عظيمًا، ما يقرب من ثلث الأصوات كانت من نصيبنا، ليس لأنّنا حققنا التواجد السياسي وحسب، بل لأنّ ثلث الأصوات تلك تعني أن الكثير من الفرنسيين البيض أعطونا أصواتهم، مما أزعج اليمين المتطرف كثيرًا.

لم نكد نحتفل بالنصر حتى اليوم التالي، كان الجميع يشتَمُّ رائحة الموت في الأرجاء، غابت الشرطة على غير العادة حين سمعنا وابلا من الرصاص خارج المسجد. هرع الجميع كما كان متوقعًا، لم أفكّر - في

طريقي للمنزل - إلّا في زوجتي الحبلى، كانت النيران تلتهم كل شيء المتاجر البيوت، السيارات، كلّ شيءٍ حتى زوجتي. أتت الشرطة أخيرًا، لم يعرفوا من الفاعل بالطبع لم يعرفوا كانت الجمعة التالية هي سبب وجودي هنا، حين انطلق لساني كعادته «العين بالعين والسن بالسن، والأذن بالأذنِ» هذه المرة كانت الشرطة في مكانها، تمَّ حلُّ الحزب واعتبار الانتخابات السابقة ملغاةً ، وأغلق المسجد لاعتباره منصةً لبث التطرف والعنف. وهأنذا يا رجل خمسة عشر عامًا بتهمة الإرهاب.

- يا للمفارقة، أربعون عامًا بين دخول كلٍّ منا هنا، والسبب في جوهره واحد. لكن أتعلم أن عليك أن تفرح فخمسة عشر عامًا ليست بالمدّة الطويلة.

كان ذلك ردُّ «تايو» عندما أنهيت قصتي، لكنّه كان مخطئًا، فأنا لم أقتل، لم أعتد على أحد، أخبرته بذلك وأدهشني رده.

- قتلتُ شرطيًا ورجلًا أبيض واحدًا، فعوقبت بالسجن مدى الحياة، وأنتَ عوقبت بخمس عشرة سنةً فقط بينما حاولت قتل أمةٍ كاملة. هذه صفقة رابحة لك إن سألتني.

تعجبت كثيرًا من ردّه، لا يبدو لي أبدًا أنه شخص أمي، ربّما أكسبته سنوات سجنه الأربعون بعض الحكمة. على كلٍّ، انتهت فترة تواجدنا في الزنزانة نفسها بعد ثلاث سنوات، أتى نظام حكم جديدٍ للبلاد، وكعادة أي نظام جديد، يحاول محو ما سبقه، أصدر البرلمان - الذي ربّما كنت لأصبح رئيسه ذات يومٍ - عفوًا شاملًا عن كلِّ المساجين في

قضايا سياسيّة أو جنائيّة بشرط حسن السلوك. وبالطبع، كنتُ أنا و تايو من المعفو عنهم خلال سنواتنا الثلاث هذه فهمت - أو هكذا ظننتُ - ما يفكّر به تايو، يحلم بتوحيد الأفارقة تحت رايةٍ واحدةٍ، يرى أنني ساذج لأنني أخذت طريق السياسة للحصول على حقوق قومي، هو لا يرى إلّا حلولًا جذريةً تجبر المجتمع الفرنسي على إعطاء السودِ حقهم بطرد فرنسا من منطقة الساحل الإفريقي، تعجّبْتُ من كونه يعرف منطقة الساحل، وهي شريط ممتد يشمل خمسة بلدان، تشاد والنيجر ومالي وبوركينا فاسو وموريتانيا. بالطبع أعلم بجرائم فرنسا في هذه المنطقة، تمامًا كعلمي بجرائمها في الجزائر وإفريقيا الوسطى وباقي دول إفريقيا، ولكن كيف؟ كيف لهذا الرجل الذي تخطى لتوه الستين من عمره أن يفعل ذلك؟ يطرد فرنسا من إفريقيا! هذا أشبه بطرد الشيطان من الجحيم يريد هذا المجنون أن يشن حرب عصاباتٍ ضد الجمهورية الفرنسيّة - التي ننتمي إليها بالاسم فقط - في منطقة الساحل الإفريقي، وكأنَّ ذلك سيكون سهلا.

- هل جُنِنْتَ يا رجل ؟ تطردّ فرنسا من الساحل، ماذا كنت تشرب طيلة هذه السنوات!

- صدّقني شربتُ مثلما شربت أنت، لن يعيش أبناء قومنا كالبشر هنا ولو انطبقت السماوات على الأرض، ألم تقل أنك قرأت التاريخ كاملا؟ كيف لقوم كانوا ركوبةً أمد الدهر أن تقوم لهم قائمة من دون قتال.

- وما ثمن هذا القتال؟ من سيدفع الثمن يا تايو؟

- الجميع. كلُّ شخص استباح دماء قومي، ذلك الرجل الذي استباح أمّي الضعيفة، ذلك الشرطي الذي نظر في عين الرجل الذليل مناديًا إيّاه بالزنجي ماسح الأحذية، ماسح الأحذية ذاته، كلُّ أولئك لابد أن يدفعوا الثمن.

- وماذا عن المشردين؟ ماذا عن الذين يحلمون فقط بالحياة ولا شيء غير الحياة.

- قل هذا لزوجتك يا عبدالله، قل هذا لابنك او ابنتك الذي كنت تنتظر. ما رأيك في الحياة التي يحيونها الآن أخبرني ما رأيك يا كوناتيه في حيوات الملايين من الضعفاء أتعلم، ربّما لو كنت أتيتَ هنا مخاطبًا إيّايَ أَنك سجنت لأنك قتلت رجلاً او سرقت أو فعلت هذا أو ذاك - مثل كلّ اولئك الحثالة هناك - كنتُ ربّما لأظن الوضع تغيّر بالخارج، لكنّك تعلم تمامًا لم أنت هنا، لأنك هدّدت الرجل الفرنسي الأبيض، ذلك الرجل الذي ما رآك إلّا عبدًا تمرّد على سيّده وأراد منازعته حكمه، أتدري ماذا سيفعلون؟ سيمنعون قومنا من الحصول على التعليم الذي حصلت أنت عليه، لا يريدون تكرار هذا الخطأ مجددًا، ما أنت إلّا عبد في عيونهم وسيفعلون ما بأيديهم - بكلِّ الطرق المشروعة منها و غير المشروعة - لتبقى عبدًا. أراهن أنك كنت الزنجي الوحيد في صفّك الجامعي، أراهن أنك كنت الزنجي الوحيد هناك الذي صرخ وقال يا ليت قومي يعلمون»، وما أن قلت ذلك ماذا فعلوا بك؟ رُميتَ هنا مع القتلة والحثالة أمثالي، اولئك الذين انتزعوا حياة الحشرات الصغيرة مهملين رأس الأفعى، هم يريدون ذلك، يريدون منا أن نظل حثالةً، لاجئين، مهاجرينَ، جَهَلَة، ماسِحي أحذية وبائعين متجولين لا

يريدون كوناتيه، بل يريدون ماسوندو، الكثير والكثير من ماسوندو. أتظن بعدما نخرج سنعيش كالبشر؟ سأخرج من هذا السجن لسجن أكبر، الزنجي العجوز قاتل أبيه ماسح الأحذية، سأجلس على الطرقات أقص للصغار، و يحذِّرهم ذويهم من الحثالة أمثالي، أمّا أنت سيمنحوك وظيفةً مرموقة، سيطعمونك كي تبلع لسانك، سيستخدمونك كمسكن آلام يُحقن في البهيمة المريضة قبل أن تقتل قتلاً رحيمًا.

تذكرت حينها ،والدي، وبينما أرى الألم ينفجر من عيني ماسوندو على هيئة قطراتٍ صغيرةٍ، رَبَّتُ على كتفه وقلت له بصوتٍ يقاوم البكاء ما إن نخرج من هنا سنعود للأوطان يا صديقي، ذلك عهد علي.

(٨)

الرعب الأسود

عبد الله كوناتيه...

مر من الوقت الكثير مذاك اليوم، كان ذلك قبل أن أعود مع تايو كلٌّ إلى وطنه، لقد كان الوضع مزريًا حقًّا، لم يمر الكثير من الوقت في مالي حتى وصلتني أخبار تايو في وطنه.

- انظر من يتصل بي إنه ذلك العجوز!

- اشتقت إليك يا فتى كيف حالك؟

- الوضع هنا أسوأ مما توقعتُ يا رجل، الكثير من الأولاد يتنازعون هنا وكما تعلم فالشيطان دائمًا ما يؤلّب أحدهم على الآخر. كيف الوضع عندك في البيت؟

كانت تلك شيفرة نتحدث بها عادةً، فبالتأكيد فرنسا تتجسّس على كلّ كبيرة وصغيرة في غرب إفريقيا، هذا ما يُكسِبُها ميزة استراتيجية بالأساس لن تحتاج الكثير من الوقت لتفهمها، فالأولاد هم الميليشيات المتنازعة، والشيطان؟ ظننتك أذكى من أن تسأل.

- الوضع هنا أكثر هدوءًا، الجميع هنا يسألني عنك بالمناسبة.

- حقًّا؟ وماذا أخبرتهم عني؟



- أخبرتهم بصوتك العذب، يريدون منك القدوم حقًا وإحياء حفل صاخب هنا.

- يا رجل بهذه السرعة؟ لم تمر إلّا سنة

واحدة فقط.

- حسنًا هذه واحدةٌ جديدةٌ تُضاف إلى الإحدى والستين السابقة من عمري. هيا يا فتى لا تجعلني أكرر نفسي، يريد الجميع منك القدوم هنا حقا.

- حسنًا سأرتب الأمر، ليس قبل أن أتأكد من الأولاد هنا.

كنتُ قد أتممتُ عامًا في وطني الوحيد، لم أتوقع أن يتم احتضاني بهذا الشكل، رحمةٌ من الله عليك يا أبي كان قد بنى مسجدًا قبل أن يهاجر، والآن هو أكبر مساجد المدينة. كان يوم الجمعة وكعادتي كنتُ أترجّل إلى المسجد لإلقاء الخطبة بالعربيّة سِرت على خطاك يا أبي، فتَحتُ مدرسة للّغةِ العربيّة وعلى مدار العام المنقضي كنت أجتمع كلَّ يومٍ بعد صلاة الفجر بمن حضر من أهل المدينة في المسجد، أعلمهم اللغة العربيّة - التي حقًا أعتز بها، أقصُّ عليهم تاريخًا غير الذي أُجبروا على ابتلاعه، ومن ثمَّ أذهب لعملي في الجامعة الوطنيّة. شعرت بالمسؤولية ملقاةً عليّ كما لم أشعر بها، ولكن أتعلم. الجميع هنا فقراء، فلا ينظر أحدهم للآخر و يتمتم « هو من حصل على الوظيفة بينما أنا لم أحصل عليها لأنّني أسود، فالجميع هنا زنوج، كزنوج فرنسا، جميعهم محرومون من الأمن، من التعليم وفي أغلب الوقت من

الحياة نفسها. كانت مساواة بحق، حتى وإن كان الجميع مظلومًا، فهو على الجميع، على عكس فرنسا بالطبع.

تجاوزتُ الصفوف ناظرًا في أعين الناس، نفس نظرات اولئك القوم من أربع سنوات، ينظرون بشوق وكأنّهم ينتظرون منّي أن أفعل شيئًا، لا أستطيع أن أخذلهم، وأن أخذل عهدك يا أبي. صعدت المنبر، ألقيتُ السلام، وكعادته انطلق لساني، لكن هذه المرة لم أسيطر عليه.

«أيُّ سلام ذلك الذي تَرُدُّونَ؟ أَيُّ رحمةٍ تلك ترجون؟ أترجون رحمةً من اللّه؟ أتبكون و تتضرّعون في كل سجود وركوع قائلين سبحانك ربي العظيم، ربَّنا ولك الحمد، سبحانك ربي الأعلى، وتشهدون بألّا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنَّ محمّدًا عبده ورسوله، وتقومون من صلاتكم ليقتل بعضكم بعضًا.... فأي سلام ذلك الذي تنافقون به الله ورسوله؟ انظروا إلى حالكم إخوة تفرقوا بعد أن جعلهم الله أقة واحدة، وفيم اختلفوا؟ في خدمة عدوهم الأوحد، ذلك العدو الذي صال وجال وأعمل فيكم السيف وقلب بعضكم على بعض لعشرات بل لمئات السنين فتهلكون ويحيا بدمائكم..... أي سلام ذلك الذي تَرُدُّون لا خير فيكم ما لم يكن الخير بينكم، وما استحق أحدكم الحياة إن لم ير الموت سابقة، وما مات رجلٌ منكم إلا وقد أحيت دماؤه رجالاً من قومه .... لستم ضحايا، بل أنتم قوم مجرمون قومٌ ضعاف حزانى جاثون على الأحقاف منحنون إن لم يكن من الإنحناء بد فلنَصْدُق إذًا حين ننحني لله، وأقم الصلاة»



- يا رجل، الوضع هنا أكثر حزنًا من مالي. كانت تلك ردّة فعلي عندما رأيت أقوامًا كالنمل يتجمعون على سيارة للمساعدات الغذائية تحت اسم الأمم المتحدة مرّ يومان فقط على وجودي هنا، حقيقةً لم أتخيل الوضع بهذا السوء والكآبة، يومان مرّا كأنّهما الدهر، لم أستطع حتى النوم، الحزن يخيم على المكان.

- لم تر شيئًا بعد، لقد حكى لي الناس قصصًا لا تصدق هنا.

- أتوقع معظمها، فقد قص علي الكثيرون ما شابه ذلك. كيف حال الأولاد إذًا؟

- يتشاجران منذ عشرة أعوام، كلٌّ منهما يريد أن يلعب وحده في الحديقة، لك أن تتخيل أن هذا الفتى هناك أراد أن يقسم الحديقة.

- وماذا فعل أخوه حينذاك؟

- ماذا تظنّه ليفعل؟

كان هذا اختزالًا للوضع في جمهورية إفريقيا الوسطى التي سقطت كعادة أغلب دول إفريقيا - في دوامةٍ لا تنتهي من النزاعات المسلّحة تحت غطاء العرق أو الدين، يمكنك أن تبحث عن جمهورية لوجون، ستعرف القليل ممّا حدث هنا خلال العقد الأخير.

- يا رجل كيف سيجلس هؤلاء الصبية على طاولة المفوضات ذاتها يكرهون بعضهم كما تكره أنت الشيطان.

سنجعلهم يكرهونه أكثر من كراهية أحدهم للآخر. فقط علينا اتباع الخطة، إنّها خطتك منذ البداية.

- لا تستعجلني حسنًا! أنا أفعل ما بوسعي هناك. أولًا، أريد الاجتماع بذلك الصبي من لوجون، يتحدّث العربيّة أليس كذلك؟

- نعم كما تعلم الكثير منكم يتحدث العربيّة.

- حسنًا، رتب لي موعدًا معه، وبعدها - إن كُتب لي العمر - موعدًا آخرًا مع الصبي العنيد من الجنوب. يا رجل أليس لدينا مكان أكثر خصوصية من هنا؟

- سآخذك غدًا في رحلةٍ، لا تقلق.

وقد فعل ماسوندو - ذلك العجوز الذي يكبرني بثلاثين سنة - بعد رحلة استمرت لأربع ساعات في الغابة ترجّلنا من السيارة لننزل إلى قبو ممتلئ عن آخره بالعدّةِ والعتاد والمؤن التي تكفي لعشراتٍ من الجنود. ظننت في البداية أنه خندق أو مركز قيادةٍ سابق لقوّات حفظ السلام، لكن ماسوندو أخبرني أنه بناه بنفسه.

- أنت بنيت كلَّ هذا؟ من أين حصلت على المال من الأساس يا رجل؟

- اللغة الفرنسيّة، الشيء الوحيد الذي اكتسبته من سنواتي الستين تلك، يدفع الناس هنا من أجل تعلُّم الفرنسيّة، فالجامعة لا تقبل إلاّ المتحدثين بها، والبعثات من الأمم المتحدة هنا يحتاجون إلى

مترجمين أيضًا، بالإضافة إلى بعض الأعمال الأخرى التي كنت أمارسها أثناء صغري. سألته مازحا

- مَسْحُ الأحذية؟ عجبًا لم أعلم أنها مهنة مربحة لبناء مخبأ عسكري كهذا...... لن أسألك عن مصدر هذه الأسلحة بالطبع، ما رأيته بالخارج كان كفيلا بالإجابة. كم لدينا هنا؟

- عتادٌ كامل يكفي لمائتي شخص.

- وهل لدينا المائتي شخص؟

- بل ستمائة مرتزقة من هنا ومن هناك، الفقر سيئ يا فتى.

- وأين هم الآن؟

- يخرجون كل صباح ليصطاد كلٌّ منهم من الغابة، رفاهية شراء الأطعمة ليست لديهم، ينفقون أجورهم على أشياء أخرى على الأرجح. - وبالطبع لم تشتر هذا السلاح، أليس كذلك؟ - ليس تمامًا اشتريت بعضًا منه، غنمتُ البعض الآخر، ربحته، أيًا يكن المسمى، فهو لنا.

- حسنًا إذًا.... ماذا تشربون هنا؟ أحضر لنا شيئًا نشربه بينما نراجع خطتنا.

أثناء احتساء شراب محلي ساخن له مذاق القهوة بجوز الهند ناقشنا الخطة التي أعدها ماسوندو قبل وصولي كانت الخطة تقتضي أن

نقسم الميليشيات إلى أربعة أقسام، قسمان في الشمال بحدود «لوجون» وقسمان في الجنوب. في الشمال يشن ماسوندو نزاعًا مزيفًا مع «موسى» - قائد قواته الذي عينه ماسوندو على قسم من ميليشياته، محدثًا بعض الضجيج الذي لابد أن يسترعى اهتمام قائد ميليشيات لوجون «عبد القادر جمال الدين». كان توقع ماسوندو ان عبد القادر سيخشى الدخول في نزاع قرب منطقته، لكن بالتأكيد سيرسل بعض الجواسيس والمخبرين ليطلعوه على الأحداث، سيكون هذا هو الوقت الذي أدير فيه العمليات بين قسمي القوات في الجنوب، قوات «جيفري» و قوات «نور الدين على حدود مناطق سيطرة القوات التي أطلقت على نفسها في العقود السابقة «الرصاصات». وبالتأكيد سينحازون بشكل قاطع لقوات «جيفري». راهن ماسوندو على الطائفية التي دمّرت وطنه على مدار العقود الماضية، سيدعم عبد القادر ميليشيات موسى ضد من يظنّهم أعداءً له، وستدعم ميليشيا «الرصاصات» جيفري بشكل قاطع، وهنا يأتي دوري حفظتُ تاريخ إفريقيا، هذه الميليشيات العديدة ارتكبت أشنع الجرائم في حق بعضهم البعض، لجميع النزاعات هنا خط أحداث يتكرّر بشكل عجيب، لا عجب في ذلك، ربّما صدفة؟ تذكّر يا عبدالله، لا مجال للصدف هناء هناك تسلسل منطقي يحدث في كلّ النزاعاتالمسلّحة في القارة المشؤومة هذه، ربما تراني مهووسًا بنظرية المؤامرة، وربّما يكون للشيطان يد في هذا. انجولا التشاد، نيجيريا، مالي الصومال موزمبيق رواندا كلّها تتشارك نفس التسلسل، نزاع عرقي أو ديني، يدخل طرف مسائدًا الواحد ضد الآخر، فينتصر نصرًا غير مكتمل، ليصبح معتمدًا على بقائه في الأساس على من استقوى بهم

على أخيه من البداية، وتستمر السلسلة حتى يقوم الطرف المساند - ذاته أو غيره - بمساندة ذلك الضعيف الذي تم طحنه لعشرات السنين، فيقوى، فينتقم ممّن قتله سابقًا، ويصفح كلَّ الصفح عن ذلك الذي يقلب الأخ على أخيه. سلسلة متكرّرة لم يعبث بها أحدٌ منذ عقود، وقد قرّرتُ مع ماسوندو أن نعبث قليلًا في قوانين هذا العالم. ستبدأ الاشتباكات المزيفة بعد أيام قليلةٍ وبالتأكيد لا يعلم المقاتلون أنها مزيفة، أمام الجميع يومان فقط حتى يتمركز الجنود بالطبع جهّز ماسوندو كلُّ شيءٍ، مراكز القيادة، المخابئ، السيارات، مخازن العتاد، كلُّ شيءٍ في الشمال وفي الجنوب وبالتأكيد كان لابد لي من الاجتماع بالرجال قبل الانطلاق في مهمتنا.

كان جيفري قوَّاد، تستطيع تَوَقُّع ذلك من هيئته، متوسط الطول عريض الكتفين طويل الوجه ذو صوتٍ مائل للنعومة، غائرة عيناه في وجهه وكأنّهما تخشيان النظر في الجميع، حليق اللحية، له شعر اعتاد صباغته بالأصفر، كان حاد الذكاء سريع الملاحظة وذو قدرةٍ لا تضاهى على الإقناع، لا عجب إذًا أَنه كَان قَوَّادً. قُبِضَ عليه في فرنسا وقضى سنوات عدة مع ماسوندو قبل أن أدخل السجن. أمّا موسى فتظنّه شجرةً إذا نظرت له من بعيد، فارغ طوله - ربّما يتخطى المترين - باسم الوجه بشكل يبعث الطمأنينة في النفوس كثيف اللحية، حليق الرأس.

كان يحلم ذلك الرجل بأن يكون لاعب كرة محترف قبل أن يلقي بحلمه في ورشة أبيه الحداد، كان محترفًا بحق، يصنع الأسلحة النارية البدائيّة الصنع ويبيعها خلسةً إلى أن قُبض عليه وحكم بالسجن عشرة أعوام. أمّا نور الدين، كان صديقي منذ الطفولة، اعتدنا اللعب أمام

المنزل في مارسيليا آنذاك، بمثل عمري وطول قامتي بمجرد أن ترى ذقنه الملساء وشعره شديد القصر وانضباطه تُدرك أنه رجلٌ عسكري، تطوّع في الجيش الفرنسي في سن صغيرة ليحصل على مكانة اجتماعيّة ظنَّ أنّه يستحقها لكنّه طُرِدَ بعد ذلك من الخدمة على أي حال.

دنى منّي ماسوندو ببزته العسكرية - يدوية الحياكة السوداء كأولئك القادة العسكريين الذين تراهم عادةً في التلفاز، لم يتبق في رأسه الكثير من الشعر الأسود، وكذلك الحال مع شاربه الكثيف، شكّل ذلك الخليط من الشعر الأبيض والأسود والرمادي مع تجاعيد وجهه وقامته الممشوقة وصوته الأجش وحاجبيه المقطَّبين باستمرار وبزّته العسكرية السوداء رمزًا يجبرك على تبجيله، لا تستطيع المقاومة عندما تنظر في عيني هذا الرجل، تقوم من مقامك وكأنّ تجاعيد وجهه رسمت شكل إشارة «قف!». قمت من مقعدي بينما يخبرني ماسوندو بأن الرجال الثلاثة ينتظرون الاجتماع الأخير في غرفة القيادة.

- فليتذكر كلٌّ منكم ماضيه...

كانت تلك أولى كلماتي مع الرجال حول طاولة الاجتماعات في الغرفة... ممررًا ناظري في أعينهم تابعت:

- فليذكر كلٌّ منكم من كان في السابق، فليذكر كلٌّ منكم أحبّاءه و أصدقاءه الذين ماتوا من أجل أن يحيا هو إن كنت تظن نفسك تقاتل لأجل قومك فقد جانبك جزءً من الصواب، لا تنس أنك تقاتل من أجل نفسك بالأساس، أنتَ تقاتل لتسترد كرامتك إنسانيّتك حريتك التي سلبها منك الفرنسيون. أنت لا تحمل هم أمَّةٍ بكاملها، يكفيك

فقط أن تحمل هم نفسك، زوجتك، ابنك أو أمك وأبيك فلتحمل معاناتهم، اجعلها نصب عينيك.

توجهت ناحية موسى مخرجًا صورة على هاتفي

- أترى هذا المسدس؟ نعم، هل تذكره؟ ربما لا، لكنّي أذكر ذلك كما لو كان بالأمس. كانت تلك قضيتي الأولى عندما عملت بالمحاماة، عندما كنت أدافع بالقانون عن قومنا، هل تعلم يا موسى عمّن كنت أترافع في هذه القضيّة؟ عن طفل في الثالثة عشر من العمر كان عائدًا من المدرسة بينما أصابته طلقة طائشة في شجار بين الحثالة على المخدرات في الأزقة الضيقة في ستراسبورغ. وبالتأكيد لا تعلمُ أنّ هذا الصبي كان الابن الوحيد لوالديه قبل أن يُقتل؟..... انظر في عيني وقل لي من... صنع... هذا... المسدس؟ تلك صنيعةُ يَدِكَ، أنت لست هنا لتحرّر قومك ممّن ظلموهم، بل لتحرّر نفسك أولاً من دم هذا الصبي. لا يظن أحد منكم أنّه المخلّص ولا حتى أنا، نحن نحمل خطايانا حتى تدفن معنا .... تذكّر نظرة والدك يا ماسوندو عندما أطلقت عليه النار في قلبه، قل لي ماذا كانت تقول دموعه.... هل كان يعتذر؟ هل كان يقول آسف يا بني أنك ولدت في أرض تكرة وجودك آسف يا بني لأنّ إخوتك ماتوا قبل أن تراهم عيناك آسف يا بني أني جعلتك تمسح الأحذية بينما ترى الأولاد يلعبون، آسف يا بني أن أمّك.....

- يكفي ذلك يا عبد الله.....

- كلا، لا يجب أن تنسى نظرته، لا يجب أن تجعل منه الشيطان، يجب أن تنتقم لوالدك من الجميع، ومن نفسك أولا.. وأنت جيفري، ذلك

القواد الزنجي الذي يبيع بنات قومه من أجل النقود، لا تنس ذلك، لا تنس كم طفلًا أُجهِض لأن فتيات قومك كنَّ أفقر من أن يتجنبن الحمل سفاحًا، أنت تحمل أوزارهم فوق رأسك حتى يوم خلاصك....... ولست بخيركم، أحمل معي أوزاري أحمل معي زوجتي التي زهدت الحياة من أجل أن تحيا معي أحمل ولدي الذي لم أكن أعرفُ جنسه بعد، أحمل عهدًا عاهدت به أبي على فراش ،موته، أحمل حُلمًا أن يحيا ذلك الزنجي حياةً كريمةً في أوطانه، ألّا يتخطى الصحراء والبحر و يلعق التراب ويأكل الحشائش هربًا من وطنه...... كلٌّ منّا يحمل عهده، وليمت كلٌّ منّا عندما يوفي بعهده.

***

مر عام على ذلك اليوم من كان ليتوقع أن نتمكن من توحيد الميليشيات المتنازعة في إفريقيا الوسطى تحت راية واحدة يحملها ماسوندو وموسى؟ راية الرعب الأسود. كلّا لم تكن تلك هي طريقتي المفضلة لتسيير الأمور هنا في مالي. ربما سيقص أحدهم ذات يوم . تلك القصة لك.

- سيدي الرئيس هناك وفد دبلوماسي رفيع المستوى يريد مقابلتك على الفور.

كما أخبرتك، أصبحت رئيس الوزراء بين ليلة وضحاها.

- احجزي لهم موعدا هذا الأسبوع.

- سيدي الرئيس انهم من الولايات المتحدة!

- حسنا اجعليهم ينتظرون قليلا ريثما أخرج لهم... تبًا للأمريكان يظنون أنفسهم فوق البشر.

أنهيت ما كنت مشغولا فيه بسرعة وخرجت لمقابلة هذا الوفد المزعوم، بالتأكيد لدي فكرة عن سبب قدومهم.

- سيادة الرئيس، بادئ الكلام اننا في الولايات المتحدة نقدر كثيرا جهودكم المبذولة في مكافحة النزاعات المسلحة والنزعات الانفصالية في منطقة الساحل. لقد قمتم حقا بعمل ممتاز لا يسعنا إلا أن نعجب به ونشكركم عليه.

- لم نفعل هذا إلا من أجل توحيد شعبنا وباقي شعوب المنطقة، ليس طمعا في مساعدة من أحد او انتظارا لرسائل وكلمات شكر، لكننا نقدر مشاعركم الطيبة حقا.

- بالطبع سيادة الرئيس فمن أولويات القيادة السياسية في الولايات المتحدة هو ضمان استقرار منطقة الساحل كما تعلم، لهذا وجب علينا تنبيهكم أن الجمهورية الفرنسية تجهز ردا عسكريا شاملا خلال الأسابيع القليلة القادمة، ومن واجبنا ايضا كقوة عالمية محبة للسلام ألاّ نتدخل أو ننحاز لأي طرف على حساب الطرف الآخر.

- وكيف لدولنا المتواضعة إقتصاديا وعسكريا أن نتصدى إذا لهجوم كهذا؟ لا نطلب الانحياز منكم بالتأكيد، ولكن نطلب المنطق في

تحديد الأولويات، إن عادت فرنسا إلى الساحل الإفريقي مرة أخرى فلن يكون في ذلك منفعة لأي أحد، سيخسرون المال والجنود وسنخسر نحن آلاف الصالحين كما ستخسرون انتم أيضا. تفهمين مقصدي بالطبع.

- بالتأكيد فخامة الرئيس كنا نتوقع هذا الرد ونحن سعداء حقا به إحداث توازن فقط، كما أخبرتك فستسعى الولايات المتحدة بكل قوة أن تمنع فرنسا من تنفيذ هذه الضربة في مجلس الأمن.

- يبدو أنني لم أحسن التعبير عن كلماتي، سيدتي ما أقوله بوضوح شديد أن أي هجوم من فرنسا سيؤجج مشاعر الأفارقة في كل انحاء الغرب، بدءا من الولايات المتحدة، وهذا ما لا يريده أحد، خاصة بعد اقتراب تولّي السيد «ميلر» حكم بلادكم تفهمين تماما ما أقصده. سيخبرني أحد رجالي أن سفينة شحن أمريكية محمّلة بأسلحة وذخيرة تقدر بمليارات الدولارات تحركت لتوّها متجهة لقواعدكم في الصومال. يبدو أن هذه السفينة لن تصل لقواعدكم. تفهمين ما أقصد سيدتي؟

حركت رأسها في حيرة وطلبت مني المتابعة...

- إليك القصة، سيهجم بعض العناصر من الميليشيات - التي لا يحبها أحد كما تعلمين على هذه الشُّحنة، سيقبض الجيش الوطني لجمهورية مالي على هؤلاء الأوغاد وسنعدكم بتسليمكم أسلحتكم فيما بعد. وسنكرر هذه اللعبة عدة مرّات خلال الفترة القادمة.

- يبدو لي كلاما يتسم بالعقلانية سيد كوناتيه، لكن الثمن سيكون باهظا حقا. سأبلغ القيادة السياسية وأطلع سيادتكم على المستجدات خلال الأيام القليلة القادمة.

كان ذلك أهم ما قيل أثناء هذا اللقاء شديد الأهمية. بالطبع فهِمَت الآن مقصدي، لكنها لم تحسن تقدير الثمن، فنحن ندفع الثمن منذ قرون والآن نسترد الجزء اليسير من حقوقنا منذ متى حقا والولايات المتحدة تهتم لأمر المنطقة؟ ربما تصفية حسابات مع فرنسا لا يهم، ما يهم الآن هو أننا معرضون للهجوم خلال أسابيع، وللحق كنت اتوقع هذا الرد من فرنسا، فما عانته خلال العام الماضي لم يكن بالأمر الهين، يكاد تواجدها في منطقة الساحل أن يكون منعدما بعد بزوغ نجم الرعب الأسود.

أرسلت نور الدين برسالة إلى ماسوندو مفادها أن الحفل القادم سيكون في باريس. ليعود نور الدين بعدها بأيام حاملا إلي الرد بأنه يعرف متعهدا للحفلات في إيطاليا أخبره عن إقامة حدث عالمي كبير في باريس بعد أسبوعين، وسنقيم الحفل هناك.

ارأيت كانت الخطة بتلك البساطة، يذهب أحد رجال الرعب الأسود إلى فرنسا، يجهز الحفل الصاخب قرب القاعة التي سيقام فيها الحدث المنشود، وسيكون الانفجار مدويا بالشكل الذي يحرج فرنسا أمام العالم أجمع. هل برأيك ستسكت فرنسا على تلك الإهانة؟ بالطبع لا، كانت ستحاول غزو بلادنا على كل حال، فلا بد لنا إذا من ضربة استباقية. ومن يدري، لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا تناولت

الهاتف طالبا من نور الدين القدوم فورا إلى مكتبي، فجاء على الفور وبعد تبادل التحية أسمعته الخطة كاملة.

- اسمع إذا يا صديقي وانقل هذا جيدا لماسوندو. سيصطف كل الرجال قبيل السواحل الصومالية بكيلومترات قليلة في انتظار شُحنة الأسلحة تلك لعدة أيام، وستهجمون دون قتل رجل واحد مهما كلّف الأمر... لا تنظر لي هكذا واسمع ما أقول على الأغلب ستقع الشحنة في أيديكم دون إحداث ضوضاء أو جلبة، ستفرغ الشحنة وتنقل برّا إلى رجالنا في إفريقيا الوسطى والتشاد وسيتكرر هذا الأمر حتى تتوقف سفن الشحن تلك عن الظهور، حسنا؟

بهذه البساطة، ستتسرب الأخبار عاجلا أم آجلا أن شحنات الأسلحة الأمريكية تعرضت لهجوم مسلح على السواحل الصومالية، ربما سيربك هذا فرنسا قليلا لا يهم، هذا إجراء دفاعي فقط.

***

مر أسبوع وقد وصلت أول شحنة بالفعل إلى المخازن في التشاد وإفريقيا الوسطى، الأمر التالي - والذي كان أسهل قليلا نظرا لأني أعد له منذ فترة - هو الهجوم الفرنسي الشامل. كيف برأيك ستجهز فرنسا ضربة جوية؟ بالتأكيد باستخدام قواعدها العسكرية في إفريقيا، انظر معي ف الخريطة، قاعدة في جيبوتي تم تدميرها، قاعدة أخرى في التشاد سويت بالرمال قاعدة في إفريقيا الوسطى، قاعدة في النيجر وأخرى في بوركينا فاسو دمّرت تماما، وأخيرا هنا في مالي، كلّا أخبرتك أنني لا احب تسيير الأمور هكذا، أخرجت هذه القاعدة باتفاقية تسليم

قادة الميليشيات المسلحة. فكما تعلم، الفرنسيس جبناء، يهجمون فقط بالطائرات لا بالرجال.

لديهم الكثير من الطائرات، ولدى ماسوندو الآن نصف مليون رجل متفرقين في منطقة الساحل الإفريقي. لكنهم اجتمعوا على شيء واحد فقط، كراهية الجمهورية الفرنسية البيضاء.

أراك متعجبا كيف سارت الأمور خلال العام الفائت. أخبرتك أن ماسوندو وحد كل الميليشيات المتنازعة في وطنه لا أعلم كيف نجح بهذه السرعة ولكن لكل شخص طريقته. ربما يقصها عليك شخص غيري بمجرد ان استلمت رئاسة الوزراء ناقشت مع الرئيس - والذي يقدرني بشدة حقا - عدة قرارات هامة، كان أهمها اتفاقية تسليم قادة الميليشيات التي أخبرتك عنها منذ قليل، واجهت صعوبات شديدة لإقناع الفرنسيس بقدرتنا على تفكيك هذه الجماعات المنظمة، استغرق الأمر عدة جلسات عرفية مع كبار هذه الجماعات حتى قرر جميعهم دون استثناء تسليم سلاحهم و الخضوع للمحاكمة المدنية العادلة، وكما تعلم انا رجل قانون يا رجل.

أذكر ذلك اليوم عندما اجتمعت بالقادة وفعل لساني ما فعل واجهتهم بالحقيقة التي يهرب منها الكثيرون إن كانوا يريدون حقا تحرير الوطن من الاحتلال الفرنسي الناعم هذا فلا بد لهم بحل الجماعات المسلحة وتسليم أنفسهم فقط، بينما سيذهب الرجال الآخرون إلى ماسوندو. وافق الجميع على ذلك، وعاهدتهم بعدم تسليم أحدهم إلى الفرنسيس ولك أن تتخيل فرحة فرنسا بهذه المعاهدة، بل لك

أيضا أن تتخيل لقد رحلت فرنسا تاركة خلفها عشرات العتاد والقواعد المجهزة بكل شيء، بما في ذلك طائرات ومدرعات وناقلات نفط وما إلى ذلك. كانت صفقة رابحة بكل المقاييس، فكما نعلم تعاني فرنسا من تقلبات سياسية، وكلما مات أحد منهم عندنا تجد إعلامهم يصرخ مطالبا بالانسحاب من إفريقيا، وكل مرة يصوت البرلمان على الانسحاب من دولة تلو الأخرى، وكلما انسحب الفرنسيس تركوا خلفهم ما لا يترك، ويخلفهم هناك رجال الرعب الأسود. أما الفوز العظيم فكان تسابق دول المنطقة لتوقيع اتفاقيات دفاع مشترك وتبادل معلومات.

مر اسبوع آخر وكنّا قد تسلمنا ثلاثة شحنات جديدة ونُقلت جميعها إلى قواعدنا المنتشرة في المنطقة، وغدا هو اليوم المنشود، مؤتمر طبي عالمي للكشف عن دواء سيغير شكل العالم، سيغير هذا المؤتمر شكل العالم بلا شك. اليك ما سيحدث. سيحدث انفجار هائل قرب مكان انعقاد هذا المؤتمر، ستُحرج فرنسا امام العالم وستتهم الرعب الأسود بتنظيم هذه العملية. ستهرع بعد ذلك إلى مجلس الأمن مطالبة الموافقة على غزو إفريقيا الوسطى حيث يتواجد ماسوندو- وإن صدق الأمريكيون - فلن يدعم أحد قرار الغزو حتى تتجلى الغطرسة الفرنسية في أغبى صورها محاولة غزو إفريقيا الوسطى ومالي.

سأترك العنان لمخيلتك ماذا سيحدث عندما تعلن فرنسا الحرب على مالي؟ الحمقى، لقد اجتمع الجميع هنا على كراهيتكم ملايين الموتى في انحاء القارة سيجعلون الأحياء يأخذون بالثأر. الملايين اختلفوا في

اللون والشكل واللغة والدين والمبادئ، لكنّهم اتفقوا على شيء واحد، أن تسقط فرنسا للأبد.

(٩)

إيطاليـــا

قابلت مادلين لتوّي - الصحفية تلك التي وظفها صبري في شبكته الإخبارية -- أظنني رأيتها من قبل لكنّي لا أذكر متى كان هذا تحديدًا. امرأة حادة الذكاء في عقدها الرابع، ما لفت انتباهي أن تلك المرأة تبدو محطمة تمامًا، تدرك ذلك بمجرد أن تنظر لوجهها الذي أرهقته عمليات التجميل وعينيها ذواتا العدسات السوداء التي تغطي بها المقلتين وشعرها مزيف اللون المصبوغ بالأشقر. لم أهتم بالسبب كثيرًا، فهذا ليس شأني على كل حال، بل إن ما أثار اهتمامي أن هذه المرأة لم تصدق أن رحلة ايطاليا ستكون ذات جدوى.

- اسمعني يا سيدي، لماذا لم يخطر ببالكم ولو للحظة أن هذا قد يكون فخًا؟

- صبري، هناك من يناديك بسيدي.

مهلا، كيف يكون فخا؟ ردّ صبري مصطنعا الاندهاش.

- يا رجل تقصد أن ديميتري ربما يكون قد مات وقتل في اي مكان قبل أن يضع أحدهم تلك الشريحة في صدره وجهتُ كلامي لصبري الذي بدا أن الشيخوخة قد نالت من عقله.

- بالضبط، ربما قتله أحدهم ووضع الشريحة بأماكن لا تمت بصلة إلى موسكو كي يبعدكم عن الحقيقة.

- كلا يا مادلين، لا أظن ذلك، انا أثق بأصدقائي في المخابرات الروسية، لو كان الأمر كذلك لأطلعوني عليه ثم إني أرسلت رجالي لإيطاليا وقد حددوا موقع ماركو هناك بشمال إيطاليا.

- سيد صبري أرجوك فكر في الأمر بقليل من المنطق، لقد نُزعت الشريحة من عنقه ووضعت شريحة أخرى في صدره وكأن أحدهم أخذ المعلومات الصحيحة ووضع شريحة أخرى فقط للتشتيت أو للإيقاع بماركو هذا.

- صبري، انا أجد كلامها منطقيا إلى حدٍ كبير.

- إذا تقصدان أن أحدهم كان هنا في موسكو، وذهب بعدها إلى باريس ثم انطلق جنوبا إلى إيطاليا، ليسجل الإشارات على الشريحة، ثم وضعها بصدر ديمتري قبل أن يلقي به في جدول المياه عند المزرعة القديمة في موسكو. - لو كانت الشريحة تسجل التوقيت، لكان الأمر أسهل كثيرا.

. يا فتى، ليس كل ما يتمناه المرء يدركه. سواء كان ذلك فخ أو لا، فلا بد أن ماركو لديه معلومات نحن بحاجة لها.

كان كلامها منطقي كي أصدقك القول، لكن من عساه يأخذ هذا الطريق، موسكو باريس إيطاليا؟ إما ديميتري أو ماركو أو طرف ثالث

يتلاعب بالجميع على كلّ فرحلتنا لإيطاليا لن تطول، على الأقل نعلم وجهتنا جيدا فقد حددت جوليا الموقع بدقة، بلدة صغيرة في شمال إيطاليا تسمى «كونيا» الأزمة هنا تكمن في كيفية الذهاب إما إلى تورينو ثم في رحلة برية إلى المكان المنشود أو إلى ليون في فرنسا ثم رحلة طويلة للغاية حتى الجنوب. خياران عصيبان حقا، فإيطاليا تعاني من تفسٍ هائل للباراتوكس وفقدت قرابة الخمسة ملايين شخص بسبب هذا الوباء، وفرنسا تحت الاحتلال وكل يوم يقتل الآلاف فيها. ما رأيك انت؟ أي طريق كنت لتأخذ؟

أم أنك لن تذهب إلى إيطاليا مقتنعا بما قالته مادلين؟

بالتأكيد لم ننتظر إجابتك، ذهب ثلاثتنا بطائرة خاصة إلى تورينو ومن هناك اتجهنا برحلة برية في سيارة قديمة إلى تلك البلدة الصغيرة. لا يتوقع أحد منا رؤية أناس كثر، فهذه البلدة خاوية على عروشها بسبب الباراتوكس. ربما يضحد ذلك رأي مادلين أنها ليست هدفنا، كيف إذا صارت إيطاليا عامةً وهذه المدينة خاصةً منبعا يتدفق منه الوباء لكل أنحاء العالم. ليست إيطاليا وحدها، بل الولايات المتحدة أيضا وهذا يثير الشكوك بشكل كبير حول العصابات الإيطالية في الولايات المتحدة، لا أدري يا رجل لكن ما يهم هو أن ماركو لديه ما يكفي من المعلومات.

بينما اتشبث بعجلة القيادة محاولا الرؤية خلال الثلوج المتساقطة أرادت مادلين الجالسة بجواري أن تكسر الصمت بصوت آخر غير شخير صبري.

- أخبرني إذا هل انت مصاب بالباراتوكس؟

- بلى.

- كيف انتقل لك؟ يُقال أنه لا ينتقل إلا بالاتصال المباشر، هل من زوجتك؟

- لا أعلم، ربما لم آخذ احتياطاتي في المعمل بالشكل المطلوب لا يهم. ماذا عنك؟

- انا ايضا.

- لم تأخذي احتياطاتك في المعمل؟

- كلا يا خفيف الظل، بل بسبب زوجي السابق.

- آسف لسماع هذا، البقاء لله كما تعلمين.

- لم يقت، لقد هجرته.

- آسف لسماع هذا، البقاء لله كما تعلمين.

تعالت ضحكاتها حتى دمعت عيناها موقظة صبري من شباته الطويل.

- يا للعجب أصبحتما أصدقاء بسرعة بالفعل!

- دائما ما تستيقظ في غير أوقاتك يا صبري.

- انا متعب يا صديقي، أريد النوم حقا.

- ما بالك أصبحت تنام أكثر مما تستيقظ

كفرس النهر!

اعتدل صبري من مرقده في المقعد الخلفي وتناول دواءه ثم استدار موجها سؤاله لمادلين.

- كيف حال والدك الآن؟

- ليس على ما يرام لكني مازلت مؤمنة بأني سأنقذه.

- ماذا حل بوالدك؟

سألتها متوقعا إجابتها

- الباراتوكس، لقد دمر كل شيء، لم يتبق لي إلا أبي، ولن أعود إلا ومعي المصل.

- أحاول ذلك لي خمسة سنوات، أتمنّى أن يكون حظك أفضل من حظي على كل أرسلي إلي نتيجة تحليل إصابتك رجاءً كي تراجعها جوليا في المعمل.

- لقد تزوجت حقا؟

اخرجت هاتفي متصلا بجوليا لتظهر على الشاشة



- جوليا، رجاءً راجعي هذا الفحص بدقة و ارفعيه على الحاسوب المركزي.

- لا تتعجبي يا فتاة، انتِ لم تر شيئا بعد.

قال ذلك صبري بينما يجهز حاله للنوم مرة أخرى بعد ساعات قليلة حاولت كسر الصمت بسؤال كان يقفز بين منحنيات عقلي.

- مادلين عذرا تبدين لي بحال جيدة، كيف تدعين أنك مصابة؟

- لست «جيدة» كما تظن بالتأكيد أفضل من الكثير من المصابين لكنّي أحاول المقاومة قبل أن أموت على كل حال.

سكت لبرهة منتظرا إياها مبادلتي السؤال ذاته، لكنها لم تفعل بل نظرت لي في المرآة الجانبية بحيث التقت عينانا

- تبدو بحال مزرية حقا.

- ماذا؟ هل أخبرك صبري أني ذلك الفتى الوسيم مستقيم الظهر مفتول العضلات رقيق المشاعر مرهف الحس الذي تتهاوى عليه الفتيات بالجامعة؟ آسف لقد خاب ظنك...... هيا استيقظ يا صبري لقد قاربنا على الوصول.

ترجلنا من السيارة محاولين تحريك أقدامنا خلال أكوام الثلوج المتراكمة، يظهر الموقع الذي حددته جوليا أننا في المكان الصحيح،

لكن لا شيء، بضعة منازل صغيرة الحجم هنا وهناك مغطاة أسقفها بغطاء ثلجي كثيف، وكأن القرية هجرت عن بكرة أبيها.

- قلت لكم أن هذا فخ!

اقترب مني صبري طالبا النظر في الخريطة قبل أن يدلو بدلوه

- لو أن الموقع المحدد هنا على الخريطة هو الموقع الصحيح، فإمّا أن هذا فخُ كما تقول مادلين، أو....

- أن المكان تحت الأرض.

- بالضبط يا فتى، وبالنظر إلى المنازل هناء فربما يكون مسعانا تحت هذا المنزل على اليسار.

- لو تبيّن أن هذا فخ حقا فلن أسامحكما على تضييع وقتي.

وسط همهماتها و محاولات صبري كبح سعاله - الذي ازداد بشكل ملحوظ - كنا نحرك أقدامنا بين الثلوج باتجاه هذا المنزل الصغير، منزل ريفي صغير من طابق واحد مغطى بالثلوج. دنونا من الباب ولم ينتظر صبري حتى أعطى الباب ركلة ظننت انني سمعت صراخاً حينها. لا شيء، ثلاجة قديمة مفتوحة بها بعض الأطعمة الفاسدة، طاولة إلى يسار الباب عليها كومة من الجرائد مثبتة بحجر حتى لا تتطاير، تلفاز قديم و أريكة مهترئة من أمامه بالطبع كان الجميع يبحث عن باب مؤدٍ للطابق السفلي - إن وجد. كان الظلام يخيم على المكان خاصة

في الغرفة التي دخلتها للتو. راودني هذا الشعور الغريب باللا منطقية، فالغرفة فارغة تماما إلا من هذا السرير في اخر الغرفة.

- صبري حرّك معي هذا السرير

وقد وجدناه تماما أسفل السرير، باب معدني ما إن ترفعه للأعلى حتى يتدنى منه سلم معدني كذلك لم انتظر أحدا منهم، فبمجرد أن انزلق السلم إلى الأسفل حتى سمعنا صرخة مدوية جرت القشعريرة في جسدي لكنّي لم أتوان عن النزول للأسفل خطوة تلي الخطوة، وصرخات الرجل تتعالى بالأسفل دون أن أميز كلمة واحدة. لا يقل طول هذا السلم عن عشرة امتار حتى الآن ولا أشعر بنهايته تقترب حتى، فما زالت صرخات الرجل بالأسفل بعيدة ولا أكاد أرى أصابعي من الظلام لو أن قضيبا واحدا من قضبان هذا السلم اختفى من تحت قدمي لسقطت إلى حيث لا أعلم ليس هذا طابقا سفليا بل مخبأ حروب ربما.

أخرجت مادلين هاتفها محاولة إضاءة ذلك الظلام بينما ما تزال في الأعلى، ويشكل صوت أقدامي وأقدام صبري مع سعاله المتصاعد وصرخات الرجل التي تقترب في الأسفل صوتا يقتل العقول ويزداد الأمر سوءا بهذه الرائحة النتنة التي تخترق أنفي. ها هي! لمست قدمي الأرض أخيرا حركتها يمينا ويسارا بينما مازالت الأخرى على السلم، نعم لقد وصلت للأسفل. أخرجت هاتفي وبدأت ألوح به ببطئ باتجاه مصدر الصراخ ويكاد قلبي يثقب صدري من الخوف، حتى رأيت انعكاس الضوء في عينيه قبل أن يشيح بنظره وتتعالى صرخاته.

لم استطع النطق أو الحراك، أطلت النظر وكأن عيناي أجبرتا على الثبات أمام هذا المسخ المقيد بالأغلال من جميع أطرافه في قضيبين معدنيين مثبتان في الحائط، برداء مهترى، طويل الشعر أشعث اللحية وكأنه حُبس ها هنا لقرون، نحيل البنية حتى كادت عظامه تمزق جلده المهترئ، تفوح منه رائحة الموتى حين يتركوا في العراء.

ساعد ضوء هاتفي صبري في معرفة أنه وصل للقاع، كانت صدمته أقل قليلا مني قبل أن يطلب من مادلين البقاء بالأعلى حتى لا ترى هذا الرجل، لكنها كانت قد وصلت بالفعل.

- يا للهول! ماذا حل بهذا الرجل.

- ربما ما حل بملاك يا فتى لا تقترب

كنت أقترب من هذا الرجل المكبل بالأصفاد في الحائط مسلطا الضوء على جسده لأرى آثار الحقن في عنقه.

- هذا الرجل لم يمكث هنا إلا قليلا، ربما أسبوع أو على الأكثر عشرة أيام تبدو آثار الحقن في رقبته حديثة. فلنبحث عن أي شيء في هذا المكان.

كان من الصعب علينا حقا أن نجد شيئا في هذا المكان نظرا للظلمة وجدت مادلين مفتاحًا للكهرباء لكنه لم يكن يعمل. بينما سرت بمحاذاة الحائط حتى وجدت حوض مياه ممتلئ بالإبر تفوح منه

رائحة نتنة، وجدت صبري يلتقط شيئا بجوار طاولة مقلوبة على أحد جوانبها.

- صبري هل وجدت شيئا؟

ناولني كاميرا لكنها كانت فارغة على أي حال، استمررنا بالبحث في الجوانب قبل أن يتجه صبري مباشرة لذلك الرجل الذي توقفت صرخاته، لم ألحظ تلك الشاشة على الجدار ذاته من قبل..

لا يهم.

- بربك يا صبري ماذا ستفعل!

بدأ في البحث في ملابس الرجل - بينما لم يتوقف عن السعال للحظة - حتى شعر أنه أمسك شيئا بجيبه الخلفي. أخرج صبري ما وجد وهم مبتعدا عنه قبل أن يتقيأ الرجل في وجهه ليسقط على الأرض.

هرعت ومادلين إليه مسرعين

- بربك يا صبري ماذا تفعل قلت لك ألّا تقترب منه.

ظل يسعل حتى شعرنا أن قلبه سيخرج من بين فجوات صدره ليبدأ بالتقيؤ على الأرض.

- فقط اهدأ وسنحاول الخروج به من هنا



- انتِ لا تفهمين صبري يعاني من مشاكل صحية بالأساس، لو أصيب بالباراتوكس سيموت على الفور. تبا كيف سأخرج بك من هنا يا صبري! أسقط صبري من يديه ميدالية مفاتيح والمحفظة اللتان أخذهما من جيب هذا الرجل.

- ابق بجانبه.

ركضت لآخر الغرفة عند الحوض لأتناول إحدى الإبر، لابد من قتل هذا الرجل قتلا رحيما. عدت إلى الرجل المكبل بالحائط، كان قد هدأ كثيرا و تدلت رأسه على صدره انا آسف يا رجل. وضعت الإبرة على عنقه محاولا غرسها بلطف، قبل أن يرفع رأسه ناظرا في عيني.

- انت تشبه أخاك كثيرا.

ثم تدلت رأسه على صدره مرة أخرى. هل قال ما سمعت؟ قالها بالانجليزية، بالتأكيد لم افقد عقلي بعد هذا الرجل قال لي أنني أشبه ملاك كثيرا!

أخرجت المفاتيح من جيبي وفككت الأصفاد عن الرجل ذاهبا بهم إلى صبري مكبلا يديه.

- ماذا تفعل!

- ستفهمين صبري! هل تستطيع الوقوف؟ هيا سنصعد للأعلى يا رجل اصمد.... مادلين سأصعد درجتين من السلم ومن بعدها تكبّلي يديه بقدمي، سأحاول سحبه من الأعلى بينما تدفعينه من الأسفل.....



لا تنظري إليّ هكذا أعلم أنه يزن كلينا معاً، هيا يا صبري تماسك هذه المرة فقط من اجلي.

ارتفعت عدّة درجات حتى بدأت مادلين بتثبيت صبري بقدماي رافعة إياه للأعلى بينما احاول سحب قدماي درجة تلي الأخرى هيا يا صبري ساعدني كما تفعل دوما ساعدني لأجلك هذه المرة لا لأجلي. أشعر بجسدي يتمزق إلى نصفين، لن تموت يا صبري، ليس الآن، ليس بعد.
- ارفعي بكل ما أوتيت من قوة، اصمدي لقد انتصف طريقنا للأعلى..... ماذا بك ايها العجوزالا تستطيع رفع قدميك ! اجمع شتات نفسك ايها الضعيف، هل ستستسلم الآن! هل ستموت بهذه الطريقة!

أرجوك يا صبري لا أقوَ على الصراخ، لم تخذلني ذات مرة فلا تجعلها المرة الأولى. ها هو! خفٌ الوزن كثيرا، لا بد أن صبري بدأ بإمساك درجات السلم.

- هيا يا رجل لقد أوشكنا... لا تفلتيه يا مادلين لو سقطنا من هذا الارتفاع فهي نهايتنا بالتأكيد.

بمجرد أن صعدنا الدرجة الأخيرة سقط ثلاثتنا على الأرض، أشعر وكأن ساقي قد انفصلتا عن جسدي، ارتخى صبري على الأرض لكنه ما زال يتنفس، حاولت التقاط أنفاسي وبكلمات تكاد تفهم طلبت من مادلين مساعدتي في نقله للسيارة. قبل أن يشهق صبري شهقته الأخيرة:

- لم تكن يوما نكرة يا بني.....



(١٠)

المصل

كان من الصعب على والدي أن يهتما بي في وجود ملاك، أتفهّمُ ذلك الآن على عكس سنوات طفولتي، كيف لوالدين مصريين - او ربما أي والدين من أيّ ثقافةٍ في العالم الواسع هذا أن يعيرا طفلهما العادي أي اهتمام في وجود ابنهما العبقري العظيم الذي حصل على الشهادة الاعدادية في سن التاسعة؟ بالطبع لا يمكنهما ذلك ولا ألومهما، على العكس أنا أتفهم ذلك ولربما كنتُ لأفعل الشيء ذاته، فتفضيل الآباء لابن على الآخر يأتي دائمًا دون أن يلاحظ أحدهم ذلك يمكنك أن تتذكر كيف فرح والدك عندما نجح أخوك الصغير في شهادته الثانوية بنسبة نجاح لا تتعدى نسبة الخصم على الملابس في فترات العروض الشتوية، تتذكر فرحة والدتك عندما تخرّج شقيقك في كليّة علوم ورق الحائط بعدما ظل يرسب فيها لمدة عشر سنوات، يمكنك كذلك أن تذكر كيف كان يتشدق والدك على شقيقتك الصغرى بالأموال بينما يتركك أنت بورقةٍ نقديّةٍ لا تشتري فنجانًا من القهوة.

كذلك كان الوضع بالنسبة إليَّ، طفل عادي تمامًا مصابٌ بانحرافٍ في عينه اليسرى يتعرّض للسخرية من زملائه باستمرار قبل أن ينقذ شقيقه حياته. أرأيت؟ أجرى لي جراحةً في العين بينما كان في الثالثة والعشرين من العمر فقط، وأجرةُ على طلب الاهتمام حقا! بالتأكيد لا، ربما لم أكن جديرًا بالاهتمام في أعين الكثيرين إلاّ ثلاثتهم ليلى سلمى

وصبري. لا يربطهم شيء إلّا ذلك. رأيت ليلى تنتزع حياتها بأم عيني، وماتت سلمى منتظرة زواجنا، والآن يا صبري أواري جثتك بالتراب.

- هل كان قريبًا منك إلى هذا الحد؟

كان هذا صوت مادلين الناعم يحاول أن يخترق الصمت الذي دام لدقائق.

- ليس تمامًا، كان كأي من أقربائي، ربّما أحببته أكثر من البقيّة لأنّه أمضى معي من الوقت كثيره في الأعوام الخمسة الماضية، أو ربما لأنه كان يراني. بل كان أخي الكبير وأبي الذي لم أحظ به من قبل، كان صديقي الصدوق وحامل سري، عمودي الفقري الذي تحطم لتوّه. ويبدو أنها لم تصدقني، حتى الكذب أصبحت فاشلا فيه.

- هل ثمانع إن أخبرتني القليل عنه؟ ربما أكتب عنه قصةً حالما أصل إلى لندن مرة أخرى.

نظرت إلى شاهد قبره بينما أضع ما تبقى من ميداليته المفضّلة في جيبي وأتبعت ذلك بشهيق طويل لأسرد لها.

هو ابن عمي الكبير، يكبرني بعشرين سنة كاملة، كما تعلمين كان ضابطًا سابقًا في إحدى الجهات الرفيعة.

- سيّدي، هل أنت بخير؟

- اخرج وأغلق الباب من خلفك، لا أريد مقابلة أحد.



- أمرك سيدي.

كان ذلك صوت صبري الخشن راقدًا على سريره لا يقوى على الحركة - إلّا اليسير منها - ممسكًا بتقرير وفاة زوجته في وحدة العناية المركزة، وما أن أغلق طبيبه الخاص الباب حتى تحوّلت أحباله الصوتيّة الخشنة إلى أوتار حزينة، وانهمر سيل من الدمع على وجنتيه المجعدتين، صارخًا بكل ما تبقى فيه من قوّةٍ قبل أن يتناول تقرير حالته الصحيّة. بالطبع، ما كان ليسوء الأمرُ أكثر من ذلك، لم يفقد صبري في تلك الحادثة زوجته فقط، بل قدرته على الإنجاب أيضًا. لقد أَحَبَّ زوجته حقًا، كان يراها في كلِّ شيء، بل كان يلعن نفسه كلَّ يومٍ ألف مرّة، كان يتمنى أن يرى نفسه ميّتًا على أن يقرأ تقرير وفاتها بعينيه.

لم يستطع حينها أن يكمل عمله في تلك الجهة الأمنيّة الرفيعة، فاستقال رافعًا الحرج عن الجميع وبمكافأة نهاية الخدمة وعلاقاته العديدة بدأ شبكته الإخبارية الجديدة، أذكر ذلك لأنه جاءني يوم حصولي على الشهادة الثانوية. سألني حينذاك عن رأيي في الاسم الذي اختاره لتلك الشبكة الإخبارية. «ضياء » كان ذلك الاسم الذي استقر عليه، لكنَّه حقًا لم يكن اسمًا جيّدًا، يبدو لي كاسم مدرّس للّغة العربية في منتصف العمر يضرب تلاميذه بالعصا الغليظة محملاً إياهم نتاج ضعف شخصيته وقلة حيلته.

- ما رأيك في اسم «نور» أظنُّهُ بنفس المعنى ولكنّه أفضل.

- ولكن يا فتى أنت تعلم، كنتُ أريد أن أسمي ابني «ضياء» وأريد تخليد اسمه بهذه الطريقة.

- كنتَ تريدُ معاقبة ابنك حقًّا بهذا الاسم، يا رجل لو كنت رُزقت به لكنتُ أقنعتك باسم نور.

- أظنُّني كنت سأقتنع برأيك أيضا، حسنًا، فلتكن «شبكة نور الإخبارية». كيف تبدو لك هكذا ؟ هل ستنجح؟

- أظنّها ستبلي بلاءً حسنا ما دمت لن تظهر بوجهك أو صوتك في أي شيءٍ فيها.

كان ذلك حديثنا على طاولة الغداء في أحد المطاعم الفاخرة، كانت عائلتي وقتها في الولايات المتّحدة ليشهدوا حصول ملاك على درجة علميّةٍ رفيعة لا أجرؤ حتى على ذكر اسمها لا ألومهم لكنّي سُرِرتُ لوجود صبري إلى جانبي حينها.

كان عاطفيًا بشكل كبير، أذكر يوم أن التقيتُ بسلمى للمرّة الأولى وأخبرته عنها، أذكر كيف اغرورقت عيناه بالدمع بينما يفركهما خوفًا من أن أراه باكيًا. بالطبع تذكّر كيف التقى بزوجته.

- مبارك لك يا فتى أنصحك بأن تتزوجا بسرعة ما دمتما تحبّان بعضكما البعض، فالعمر ليس طويلًا بما يكفي لتضيع حياة أحدكما دون الآخر.

- انظر لهذا العجوز يريدُ مني الزواج بينما مازلت أرسب في الكليّة كلّ عام.

- وماذا في ذلك؟ ألا ترى نفسك قادرًا على أن تتولى شؤون نفسك؟

- صبري، أنا أعلم أنه ليس ذنبك أنك وُلِدت بهذا الأنف الضخم، ولكن رجاءً أبقه بعيدًا عن شؤوني. كان صبري كما كانت ليلى وكما كانت سلمى، وكما ذهبوا ذهب هو.

بعد أن دفنًا كليهما في الباحة الخلفية لأحد المنازل - والتي كانت مغطاة من الأعلى فلم تكثر الثلوج على الأرض - دخلنا إلى السيارة حيث أخرجت محفظة الرجل لأتفقدها.

- انظري، إنه ماركو أحد أعضاء فريق ملاك البحثيّ.

- من إذا فعل به هذا؟

- هذا ما نحاول معرفته.

أثناء البحث في محفظته وجدت بطاقة تخزين، ربما كانت في تلك الكاميرا في المخبأ؟ سنرى. أدخلتها في حاسوبي المحمول ولكن لم يكن الأمر سهلا، كانت مقفلة بكلمة سر.

- ألا يمكنك اختراقها؟

- هل أبدو لك ذلك الرجل العبقري الذي يخترق الحواسيب ويفك الشيفرات جربت ،باراتوكس، لا. ماركو روشو، كلّا. لا أجد اسما لأحد من أطفاله أو ربما زوجته. مهلًا أخرجت هاتفي طالبا جوليا في المعمل - جوليا، ما هي ترجمة ملاك بالإيطالية؟

- انجيلو بالفعل! أراد ذلك الرجل أن أحصل على هذه البطاقة. فتحت البطاقة لأجد ملفات ذات تسلسل تاريخي بداخل كل منها مقاطع فيديو لا تحصى.

- هل كانوا يسجّلون التجارب على البشر؟

- بالطبع، انظري لكل هذه المقاطع.

كنت سأتعجب لو لم أكن فعلت الأمر ذاته، الفارق أنني لم أفعل ذلك أبدا بالأصحاء. فتحت الملف الذي يحمل التاريخ الأحدث - والذي يحمل تاريخ الأسبوع الماضي - لأجد مقطعا واحدا فقط، «مرحبا انا الباحث الإيطالي ماركو روشو، اعمل كعضو باحث في فريق دولي مكون من عدة باحثين بعلم الأمراض والطفيليات، طالما تشاهد هذا المقطع فأرجو أن تكون وجدتني ميتا. على مدار السنوات الخمس المنقضية عملت لحساب شركة دولية متعددة الجنسيات تهدف لتطوير سلاح بيولوجي. وبينما أسجل هذا المقطع توصل أحد الزملاء إلى مصل مضاد لما يسمّى الباراتوكس أجرينا اختبارات على آلاف السكان المحليين في المخابئ تحت المنازل هنا في «كونيا». أتحمل مسئوليتي كاملة، كما أتحمل مسئولية اعترافاتي هذه طالبا العفو والغفران من الجميع ... ستجدون إحداثيات المقر الرئيسي للشركة ومكان تواجد المصل وكل المعلومات مرفقة بذات الملف. وداعاً»

- مهلا انت لا تصدق هذا الرجل!

- ولم لا؟



- لا يبدو لي صادقا على الإطلاق - هناك سبيل واحد للتأكد من مدى صدقه.

- لا تقل أننا سنفحص كل المنازل.

- سيكفي منزل واحد او اثنان ثم سنبلغ السلطات. هيا بنا.

خرجنا من السيارة وكان الليل قد اقترب من الانتصاف وولجنا في أقرب منزل حتى لا نضطر للسير كثيرا. كان مدخل المخبأ تماما كما كان السابق، أسفل السرير في الغرفة الداخلية، وعلى عكس ،سابقه، فلم نسمع صراخا هذه المرة. أخذنا السلم المعدني للأسفل لنجد الظلام ذاته الرائحة ذاتها، وكومة من الجثث. بجوار الطاولة كنت الكاميرا على الأرض، تناولتها لأجد بداخلها البطاقة الخاصة بها. كررنا البحث في عدة منازل ومن ثم عدنا إلى السيارة. أدخلت البطاقات الاتي جمعتهن من الكاميرات لأجد جميعها فارغة تماما.

- بالتأكيد نسخ كل البطاقات على بطاقة واحدة كي يجمع كل شيء معا. وكأنه يريد الصفح والغفران.

- هوني عليكِ، الناس يقترفون الأخطاء دائماء وعلى الأقل نستحق أن نطمع في العفو والمغفرة.

- حسنا يا سقراط، ماذا الآن؟ هل سنذهب إلى مقر الشركة المزعومة ؟

- انتظري ... جوليا، أظهري لي تلك الإحداثيات على الخريطة

- مارسيليا!

- أصبحت قضية دولية ،الآن، لابد أنك سعيدة بهذا السبق الصحفي.

رمتني بنظرة باردة قبل أن تخرج من السيارة لتجري اتصال ما يا إلهي مارسيليا. اقتربنا كثيرا من الحقيقة هذه المرة.

- أخبرتهم في القناة بوفاة صبري وبتلك الشركة، سينسقون من حكومة مالي من أجل دخولنا مارسيليا وتوفير الحماية لنا.

لم استطع منع نفسي من سؤالها سؤالا لا يخصني بشيء على الإطلاق

- لماذا هجرتي زوجك؟

- هيا من فضلك، لا نريد أن يطلع الصباح علينا إلا ونحن هناك.

عدنا بالسيارة إلى تورينو حيث سنستقل الطائرة الخاصة إلى مطار مارسيلا. لم يستغرق الطريق إلا ساعة واحدة حتى كنا في مطار مارسيليا. سلمنا المعلومات لجهاز الشرطة الذي طلب منّا الالتزام بأماكننا في صالة الانتظار حتى يقبض على الموجودين في مقر الشركة. وبمجرد أن طلبت كوبا من القهوة قفزت مادلين في وجهي

ظننتك أقلعت عن شرب القهوة. أخبرني صبري - رحمه الله - أنك تشرب وتأكل القهوة فقط.

- الأمر ليس كذلك، انا لا أشعر بأي مذاق إلا مذاق القهوة.

- لكن صبري أخبرني أن قهوتك عديمة المذاق؟

- بالضبط، لهذا مازلت أحبها.

استيقظت من النوم على ضوضاء اجتاحت ساحة الانتظار، يحاول الجميع التقاط الصور والصياح باسئلة لم أفسرها من تداخل الأصوات. جاء أحد رجال الشرطة شديد الضخامة من ذوي الرتب العالية واصطحبنا في سيارة خاصة إلى مقر الشركة.

أعتذر عن عدم تقديم نفسي، يمكنك مناداتي بموسى.

لا عليك يا سيدي، هل وجدتم أحدا في الشركة؟

- القليل منهم فقط، البقية فارون هنا وهناك منذ ايام.

- وماذا وجدتم في الشركة؟

- أتفهم قلقك سيدي، لم يعبث أحد بأي شيء أضمن لك ذلك.

لم تستمر الرحلة طويلا فسرعان ما وصلنا إلى مبنى الشركة كان عظيما بحق، ربما يتكون من خمسة عشر طابقا أو أكثر. لم نستغرق الكثير من الوقت قبل أن أتبع المعلومات التي قالها ماركو عن المصل، ولأتخذ بعض الاحتياطات فقد أخذت كل انبوب زجاجي في ذلك المبنى، لم يكونوا كثر بالمناسبة. والآن استطيع أخذ رحلة من مارسيليا إلى الوطن حيث سأنعم بالقليل من الراحة.

عدتُ أخيرًا من تلك الرحلة العصيبة، لا وقت لدي للراحة فعليّ النزول للمعمل لفحص العينات التي جئنا بها من مارسيليا نعم هي ذاتها التي وجدتها في ذلك المخزن في إيطاليا. أخذت حمامًا باردًا لأستعيد الشعور بحواشي مرّةً أخرى بينما أعَدَّ ذلك الآليُّ الغبي القهوة التي لا أذكر أنني شربتها أبدًا أشرت للتلفاز لأرى ما الجديد، هل مات مئات الآلاف اليوم مرّةً أخرى بسبب ذلك الباراتوكس اللعين أم ماذا؟

أغلقتُ الخط بينما آخذ المصعد للمعمل، طلبت من جوليا أن تجهّز لي الغرفة ريثما أرتدي ملابس العمل بغضون دقائق كنت أمام السرير ذاته، شكرا لك أيّها السرير البطل، لقد تحمّلت الكثير من أجل البشرية حقًّا، لا أذكر عدد الأرواح التي صعدت إلى السماء من فوقك يا صديقي الخمول، كم أحسدك حقًّا كونك جمادٌ لا تشعر بالحزن أو الأسى أو الندم أو جميعهم. نظرت لذلك القرد المسكين كان فاقدا لوعيه، حقنته جوليا يوم أمس بجرعةٍ من الباراتوكس، لابد أنه يفقد جزءًا من حواشه الآن.

أخذت تلك القارورة الزجاجية الصغيرة وذهبت بها عند جهاز الفحص بضع قطراتٍ كانت كفيلة كي أراها على الشاشة أمامي. يبدو لي التركيب ذاته للباراتوكس ربما تكون تلك هي النسخة الخاملة من الباراتوكس التي حدثني عنها ملاك من قبل أذكر أنني رأيتها من قبل لكنّي لا أذكر تحديدًا أين سيعرف الجهاز ذلك حينما يقارن النتائج بكل النتائج السابقة المسجلة عليه، بالتأكيد سيأخذ الأمر وقتًا فلقد أجرى هذا الجهاز الحاسوب البطل الآف الفحوص لآلاف العينات. لو كانت هي بالفعل فعلى الأقل صار لدينا أمل في أن نجد علاجا لهذا الكابوس.

حقنت ذلك المسكين بهذه الجرعة واستلقيت على الأريكة خارج الغرفة ريثما ينتهى الجهاز من مقارنة النتائج النهائية.

استيقظت بعد سويعاتٍ قليلة على صوت تنبيه الحاسوب، لقد أنهى ذلك المغوار فحص النتائج ومقارنتها بكلِّ النتائج السابقة لديه. طلبت من جوليا فنجانًا من القهوة وأظهرت النتائج على إحدى الشاشات أمامي بالطبع كنتُ واثقًا من ذاكرتي، هناك حالتان متطابقتان بالفعل أحدهما تطابق كلّي والآخر جزئي. نظرت في اسم الحالتين لأرى أن تلك المتطابقة جزئيا كانت عينة من دمي أنا والأخرى كانت لمادلين، تطابق كلي.

هل كانت مادلين تُخفي بداخلها المصل كل هذا الوقت؟ هل تعلم من الأساس أم تجهل ذلك مثلي تمامًا؟ بل لماذا يتواجد بداخلها الباراتوكس الخامل دون النشط، بل كيف وصل إليها من الأساس! وماذا عن التشابه الجزئي ذلك، انا لا أفهم شيئا هل كنتُ مصابًا طيلة هذه السنوات بالبارتوكس المعدّل أم بالقاتل؟ هل كان العلاج بداخلي طيلة هذه الفترة! أنا حقا لا أفهم شيئا. دخلت مسرعًا لأتفحص القرد لأجد حالته قد بدأت بالفعل بالتحشن، انتظمت أنفاسه وإشاراته العصبية كذلك، هذا مستحيل.

أخذت عينةً من دمه لأفحصها خلال دقائق، بالتأكيد هذا القرد بداخله الآن نسختان من الباراتوكس، هذه هي النسخة المعدّلة التي طوّرها ملاك. قارنت نتيجة عيّنة القرد الجديدة بخاصتي وكما توقعت تطابق كامل، طيلة هذه السنوات وجسدي يحمل المرض وعلاجه.

طلبت من جوليا استنساخ الجرعة الباقية، وحقن كلٍّ من في المعمل بها من الحيوانات والجرذان، وإرسال كل النتائج إليّ على الفور.

***

معلنة هبطت طائرتي بمطار ماسوندو بباريس عاصمة الشمال، في بدايات الربيع حيث تتفتح الأزهار بدء حياة جديدة، كذلك كان سبب مجيئي هنا. ركبت السيارة التي ستأخذني إلى القاعة ذاتها حيث كنت يا أخي لم آبه بعدد الحاضرين، ولا بمكبرات الصوت ولا بكاميرات الإعلام، فقط كنت أرى ملاك حين وقف ها هنا واضعا نقطة البداية، وآمل يا أخي أن تراني واضعا كلمة النهاية لما بدأته انت اليوم سيحصل الجميع على المصل بالمجان، سيحيا الجميع سواء، وليحترق في الجحيم كل من أضاع حيوات هؤلاء. اليوم وبعد أن خسر كل منّا من خسر، وفقد كل منا أحبةً وأشقاء وأزواج، آمل أن تكون حيواتنا قد أعطت معنىً لتضحيات الآخرين.

لا أدرك حقا هل كان هذا ما قلته أمام الكاميرات أم ما كنت أريد قوله، المهم أن الجميع سيحصل على حق الحياة.

(١١)

نيكولاس

موسكو، ٢٠١٨

- عليك أن تستعيد عرشك يا بني، عليك أن تسترد مجد أجدادك، لقد قطعنا شوطًا كبيرًا حتى الآن، فلا تدع عزيمتك تهدأ!

- هل أنهيت قهوتك بالفعل؟ من يراكِ الآن لا يصدِّقُ أنك أتممت عامكِ الخمسين ليلة أمس!

- ضاحكةً خمسون عاما يا لك من معسول اللسان.

- صدقيني لا تبدين أكبر من ذلك، ربّما عامًا أو عامين.

أنهت فنجانها واعتدلت قائلةً - أخبرني ما الجديد، هل حصلت على ترقية ؟

ليس تمامًا، لكنّي بدأت أحصد بعض الثمار أخيرًا.

أومأت برأسها في إشارة لجعلي أستمر...

- أوكل المدير إليَّ قضيةً مميّزةً بشكلٍ كبيرٍ شيء ما يتعلق بعلاج جديدٍ ربّما او بمرض جديد، شيء من هذا القبيل.

ظهر عليها الاهتمام بينما كانت تلعق أسنانها

من أثر القهوة.

- هذا ما أعرفه حتى الآن لا أحد يعرف أكثر من ذلك، لا هنا ولا حتى في الغرب، و يفترض أن فريقي من سيمسك بزمام هذه القضية، ربّما ستكون ذات أهمية .... أنهيت فنجاني و تابعتُ... هل كان هناك مثل هذه الأشياء في أيامك؟

- أكثر من ذلك بكثيرٍ يا فتى، كانوا يستخدمون هذه الأشياء لإبادة مدن كاملة، أذكر في طفولتي أنَّ عالمًا ألمانيا اخترع غازًا ساقًا، كان الطيارون الألمان يلقونه فوق قرى و مدن كاملة في فرنسا وبلجيكا. عجبًا أما زلت تذكرين!

- أرأيت؟ وتجرؤ على مجاملتي بسبعين عامًا يا «نيكي»

- حسنا ربّما كنتِ أكبر من ذلك قليلا، لكن أني لك بهذه الذاكرة يا فتاة.

لا أعلم إرادة أبينا لكي يستعيد جدّك الكبير مجده.

حسنا سأكتفي بهذا الآن لأني وعدت أليكسي باصطحابه من المدرسة إلي الحديقة، أراكِ عندما أعود.

لا تنس تقبيل ذلك الشقي، فهو يحب ستيزي كثيرًا.... تمامًا مثلك يا "نيكي".



- بالتأكيد يا سيّدي، قبل منتصف الليل تمامًا سأطلعك على ما جد، بالتأكيد.... نعم .... ثق بي يا سيدي شكرًا لك. فلنتابع حديثنا يا نيكي، ماذا كنت تقول؟

- إنك لن تردَّ على مكالمات العمل هذه بينما نتجول في الحديقة؟ لا بأس لا عليك.

- هوّن عليك أيها القوي، أبوك رجلٌ مهم و أنت ستكبر حتى تصبح مثله تمامًا.

- كلا لا أريد أن أكون ضابطًا، فهي مهنة خطيرة، أريد أن أكون لاعب كرة قدم .. أركل الكرة هكذا و هكذا و يحبني الجميع و يهتمون لأمري و يلتقطون معي صورًا كلّما ذهبت هنا أو هناك.

- أَتَعْلَم، هناك وظيفة ستجعلك محبوبًا أكثر من لاعب كرة القدم.

اتسعت عيناه سائلًا

- حقا! ما هي؟

- أميرًا، ثمَّ ملكًا، تحكم هذه البلاد كافّة، يعشقك الجميع و يحملون صورتك في أعراسهم و حفلاتهم. بل سيحبُّك أيضًا لاعبو كرة القدم و يقبلون يمناك و يتبركوا بك قبل مباراتنا في نهائي كأس العالم القادم.

- أنت تعلم أننا لن نصعد للنهائي حتى، لقد فزنا على إسبانيا بالصدفة.

- ربما ليس هذا الكأس، ربّما مستقبلًا حينما تكبر و تصبح ملكًا لهذه البلاد.

- و كأننا نستضيف كأس العالم كل أسبوع. أنت تظنّني صغيرًا أليس كذلك!

- ألقِ نظرةً، هل ترى هذه الفتاة الجميلة في الصورة؟ أتدري من هذه؟

- ااه هذه «ستيزي» في صغرها، ظننتك ستريني ماريا.

- يا شقي.... هل تدري كم عمر جدتك ؟ - مليون سنة ربّما، لا أدري فهي عجوزة جدًا.

مهلًا ألم تدرس الحساب! أنت في الصف الثالث يا فتى! أريدك أن تحسب عمرها منذ تاريخ تلك الصورة.

اااه حسابات أخرى، لا أفهم هذا الخط، لن أحسبها.

- لا تحاول حتى، سأقرأها لك، ها هي انستازيا نيكلافيا ١٩١٧، و لأسهل الأمر عليك كانت بضعف عمرك في هذه الصورة.

- ااااااظن أنها ، مائة وسبعة عشر؟

- أحسنت، أتدري ، ما زالت تعاملني كطفل صغيرٍ، هل يعني ذلك أنّني صغير؟ كلا، لكنّها تعاملني هكذا لأنّها تحبُّني كثيرًا، مثلما أفعل معك أيها القوي.

- كان يمكنك أن تقول هذه الجملة دون الحاجة لكل تلك الحسابات....

- لا تكف عن التذمر، تماما كأقك. كيف هي بالمناسبة؟

- بخير، ألن تعودا للعيش معا؟

- يومًا ما أيّها القوي، أمّك امرأةٌ قويّةٌ، لكنّها ليست قويةً كوالدك بالطبع.

- على الأقل لا يرن هاتفها كلّما اصطحبتني من المدرسة.

- عُدنا للتذمر مرّةً أخرى.

- أتدري هي مهمّة أيضًا، وتعمل عملًا شاقًا مثلك تمامًا، يوم أمس قالت لي أنها ربحت قضيةً مهمة.

- حقا! هذا رائع.

- كلّا ليس رائعًا! فهذا يعني أنني سأجلس وحدي طيلة الشهر، فهي تعود للمنزل في ساعة متأخرة.

- أعدك يا فتى أنني سأعود قريبًا، ولن تبقى وحدك، سنتناوب على الجلوس معك.

- وكأنني أصبحتُ عبئًا، أتعلم، عندما أصبح ملكًا سأمنعكما من الخروج من المنزل.

- انظروا من غيّر رأيه هنا أمرك مطاع يا جلالة الملك ها هو الهاتف يرن مرّةً أخرى، سأمنعكما أيضًا من استخدامه.

- مساء الخير اليكساندرا، كلّا لا تقلقي سأعيده بعد قليل... حسنًا إلى اللقاء. يبدو أن أقك اشتاقت إليك الآن يا فتى هيا بنا سنعيدك للمنزل.

- لماذا لا تشتاق إليَّ إلا عندما تصطحبني!

هذا مزعج.

- إنّها أمّك يا فتى تهذب... هيا انهض.

***

فلنرى ما لدينا، "رسلان" ميلينكوف" مزارع من ضواحي موسكو، مات نتيجة مرض جديدٍ تفسى في سائر جسده، و قد تبيّن في تقرير الطب الشرعيّ أنّهُ أصيب بطفيلي يعيش بالنباتات. بلا بلا بلا كلام لا فائدة له....

مساء الخير سيدي.... بالتأكيد قرأته كاملًا، سأذهب باكرًا للطب الشرعي لمباشرة التحقيق هناك... ولم لا؟ أليس من المفترض أن نباشر التحقيق من هناك؟.... حسنًا سأوافيك في

المكتب غدًا...

ربما كنت محقًا يا فتى، فهذه مهنة مملة



و شاقة..

- نيكي!

يا رباه ألم تنم بالفعل هذه المرأة حقًا معجزة هذا القرن .. نعم عزيزتي، أما زلت متيقظة!

- كيف حال أليكسي؟

- بخير، يتذمّر فقط كوني لا أشاركه الكثير من

الوقت. أهذا ما يبقيك متيقظة؟

و ماذا عن هيلجا ؟

- منشغلة بقضايا توكل إليها مؤخرًا.

- يا صغيري أما آن لكما أن تعودا؟ هذا الصبي بحاجة لأسرة، أنت أكثر من يعلم ذلك.

- وكيف ذلك؟ هل سأخبرها؟ بالطبع لا. كيف سأعيش مع امرأةٍ تشاطرني السرير دون مشاطرتي السر!

- كما عشتُ مائة عام حاملةً هذا السرّ معي.

- لا تبدئي هذا الآن.



- بل سأفعل يا نيكولاس ستحمل هذا السرّ وحدك حتى تحقق مصيرك.

- أنا لم أختر هذا المصير حتى

- و أنا لم أختر ذلك أيضاً .... لم أختر أن أرى عائلتي تُقْتَلُ في القبو، لم أختر أبا ابنتي، الشيء الوحيد الذي اخترته كان أنت.

- كلّا، اخترتِ شيئًا آخر، لا عليكِ يا جدتي، سأخلد للنوم فغدًا لديَّ يومٌ شاق.

- أنا لم أختر أن أهجر أقك يا نيكولاس

- لا أم لي ولا أب إلّاكِ يا عزيزتي، اخلدي للنوم فأنت مرهقة، تصبحين على خير.

أقي، وكأني لا أذكر حتى اسمها، ماذا كان؟ كريستينا ربّما؟ لا يهم، فقط لدي أنتِ يا ستيزي أو كما تحبين اسمك الملكي، أنستازيا نيكولايفنا.

***

أنستازيا...

- هيا تحرّكوا هناك أوامر بنقلكم للقبو حفاظًا على سلامتكم

- حفاظًا على سلامتنا مِن مَن؟



- لا تسأل، هيا تحركوا.

- اسمعوني جميعًا، يحاول أقرباؤكم الوصول هنا الآن لتحريركم وهذا خرق كامل لمبادئ الثورة التي قامت عليكم بالأساس، لذا حكم المجلس عليكم بالإعدام رميا بالرصاص. مفزوعةٌ قُمت من نومى موقظةً زوجي - آنذاك.

- عزيزتي! هل هو ذلك الكابوس مجدّدًا؟ - تسأل وكأنك لم تكن جزءًا منه.

لا تبدئي ذلك الآن يا انستازيا، ماذا كان يفترض بي أن أفعل!

لا يهم، لقد فعلتم ما فعلتموه. سأعد لنفسي مشروبًا وأسترخي حتى طلوع الصباح أكمل نومك.

بالطبع يسأل ماذا كان يمكنه أن يفعل، ربّما كان عليه قتلي معهم يومئذٍ، آه عليك يا فتاة، لقد عشت سنواتٍ جميلةٍ في القصر والآن عليك الاكتفاء بهذا الخبز الرديء وهذه البطاطا الفاسدة، تبًا للألمان وسحقًا لألمانيا التي كانت السبب في كلّ هذا، لا أعرف على من ألقي اللوم هل على اولئك الشيوعيين الحثالة، أم على «فيلهلم» ابنِ عمّ أمي، فلولاه ما استطاع الشيوعيون إحداث هذه الفوضى. لا يهم! فأنت الآن مجرّد نادلة تتملّق النازيين الحمقى من أجل الفتات.

أعددتُ فطورًا بسيطًا قبل أن آخذ حمامي الصباحي المعتاد، أمام المرآة أطلت النظر في وجهي الذي بدت فيه التجاعيد واضحةً وما

وضوحها إلّا مواراةً لما تخفيه عن العالم. تحسّستُ تلك الندبة أعلى حاجبي الأيمن محاولة بيأس منع ذلك الكابوس من غزو عقلي مجددًا، لا أنسى تلك الشظية الخارجة من فوهة بندقية ذلك الشيوعي، لا أنسى كيف اخترقت هذه الرصاصة رأسك يا أليكسي، يا ولي عهد الامبراطورية الروسية العظيمة.

احتضنتُ قلادتي الذهبية، احتضنتها تماما كما احتضنت ماريا يمناي مناولة إياى هذه القلادة قبل أن تهرع روحها للسماء مفارقةً جسدها النحيل. أذكر ذلك الوابل من الرصاص الذي انهال علينا في القبو أذكر صرختك يا أبي، أذكر بكائك يا أمّي، أذكر دموعك يا تاتيانا، أذكر صوت دقات قلبك يا أولجا أذكر ذلك كما لو كان بالأمس، أذكر ذلك كله بل أراه كل يوم.

عزيزتي، أما زلتِ بالداخل؟ أريد استعمال الحمام قبل الذهاب للجريدة.

- حسنا لا تصرخ. أمهلني خمس دقائق.

أنهيت حمّامي الصباحي البارد وارتديت ملابسي حتى أنهى زوجي حقامه.

- هل هنالك من جديدٍ في العمل؟ أيّةُ أخبار مثلا عن تطورات الحرب؟ .... سألته بينما أقضم شطيرتي الباردة سيّئة الطعم.

تنتشر الشائعات هنا وهناك أننا خسرنا المعركة على الجبهة الشرقيّة بالفعل، وبحلول أيام سنحاول تسوية الحرب بشكل وديّ، ربّما تكون اتفاقيّة سلام، لا أعلم ما أعلمه أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال إخبار الناس بهذا، فقط نردّد «نحن بخير، عاشت المانيا، عاش هتلر سننتصر، الموت للسوفييت الموت لأمريكا، الموت لبريطانيا.... وكلُّ هذا الهراء»

- كم أتمنى حقًا أن ينتهي الطرفان، يموتان يختفيان إلى الأبد.

- لا تستعجلي، فإذا حدثت معاهدة السلام فسيعود السوفييت للانتقام مرّةً أخرى.

- أنت ساذج، لن تحدث معاهدة سلام. أنت بنفسك تعلم السوفيت أكثر مما أفعل.

- ليس تمامًا، كانت فقط أربعة أعوام، لا تكفي لفهم ما يفكّر به هؤلاء القتلة.

- تتحدّث عن القتل؟

- هانت تبدأين مرةً أخرى، حسنًا ستيزي، «أنا جاسوس ألماني خنزير تقرّبتُ للشيوعيين قبل الحرب العالمية الأولى من خلال معرفة أبي بفلاديمير لينين المنفي آنذاك في المانيا، وكنتُ من فرقة الإعدام التي قتلت عائلتك بالكامل ويا ليتني قتلتكِ آنذاك ولم آخذك معي عائدًا لألمانيا» هل أنت سعيدة الآن؟ هل قلت ما تريدين؟

- كلا، نسيت كذلك أَنَّكَ عقيم.

- فلتحترقي في الجحيم يا انستازيا تمامًا مع إخوتك.

فلتحترقوا جميعا في الجحيم، أنتِ والنازيون والشيوعيون، فلتحترقوا جميعًا.

لَم أر زوجي هذا بعد ذلك اليوم، ففي اليوم نفسه اقتحم السوفييت برلين، كان الصراخ عالياً بشكل لا يطاق، ليس صراخي وحسب بل صراخ نساء المدينة جميعًا، كنتُ أصرخ حتى كادت أحبالي الصوتية تنقطع تماما كملابسي وملابس كلّ نساء المدينة كذلك بأياد الجنود السوفييت. كانوا شبابًا يافعين، بل ربما لو كنت أنجبت لكان أبنائي بعمرهم أو أكبر قليلا، ما زالت صرخات النساء تلك تدوّي في أذني مختلطة بصرخات عائلتي في القبو.

حاولت الهرب بعيدًا، لقد انهارت المانيا تمامًا، لم أكن أعرفُ وقتها كيف يجب أن يكون شعوري، هل أفرح لأن النازيين الحثالة قد انتهوا إلى الأبد، أم أحزن لأن من انتصر هم قتلة عائلتي؟ لا يهم، فلقد اختبرت نوعا جديدًا من المشاعر لم أعرفه من قبل، هنالك شيء يتحرّك في أحشائي، كلّما تحرّك هذا الشيء تذكّرت كما تساءلت كيف وصل إلى هنا كيف ذلك؟ كيف لامرأة تخطّت الأربعين أن ينمو في أحشائها طفل؟ ظننت حينها أنها هبةُ من الله، وحده يعلم كم احتجت لهذا الطفل، لا يهم من هو أبوه، بل المهم فقط أنه من نسل العائلة، سأسميه نيكولاس على اسمك يا أبي وسيستعيد عرشك من جديد، وسيعرف العالم قصتنا إلى آخر الزمان.

كُنت أظن أن حظّ عائلتي في الحياة لم ينته بعد كذلك حاولت خداع نفسي حتى يوم أن وضعتها من أنتِ؟ أين نيكولاس؟ ما الذي جاء بك إلى هذه الدنيا أيتها الغبية، هذه الدنيا ليست لأمثالك من الضعفاء، توقفي عن الصراخ وارجعي من حيث جئتِ، لن تستردّي عرشك، فالفتيات لا يرثنّ العرش في عائلتنا! لماذا؟ لماذا بعد كل هذه السنوات من المعاناة لا أحصل حتى على مكافأة؟ لماذا جاءت هذه بدلًا من نيكولاس، لماذا أُخِذَ منّي كل شيء؟ عائلتي، قصري، وطني، حتى ولي عهدك يا أبي سلبوني إياه.

اضطررت يومها أن أترك تلك الطفلة قبل أن تأخذ مني رضعةً واحدة، وضعتها في ذلك الملجأ قبل أن أغادر برلين تمامًا، سامحيني يا ابنتي، فكلانا يستحق ما هو أفضل، أنت تستحقين الحياة بينما أستحق انا نقيضها.

***

كولن، ١٩٨٨

دق جرس الباب، إنّها السابعة صباحًا وقد مرّ من الوقت الكثير حقًا قبل أن يزورني أحدهم.

- مهلا يا من بالباب، أنا قادمة.

بعد الخامسة يا إلهي تزداد الحركة صعوبةً حقًا والثمانين، ربّما سيكون أحد الأولاد المزعجين يطلب حلوى عيد الميلاد. نظرت من الباب

لأرى امرأةً في منتصف العمر تقف باكيةً حاملةً طفلاً على كتفها، لا تبدو لي متسولة، فثيابها مقبولة المنظر.

- مرحبا يا عزيزتي، ماذا تريدين؟

- أنتِ انستازيا؟ لم أتوقع أن تكوني على قيد الحياة بالفعل.

تناديني باسمي القديم؟ كيف لها أن تعرفه. هل عرف السوفييت شيئًا ؟

- لم يُنادِني أحدٌ بهذا الاسم منذ أربعين سنة.

من أين لك بهذا الاسم؟

- من ذلك الملجأ الذي تركتيني فيه.

- أنتِ كاذبة.... اذهبي من هنا ولا تعودي مجددا.

قلت ذلك وانا أصفع الباب صفعًا أمام وجهها.

- لو كنتُ مكانك لفعلت الشيء ذاته، لقد أخبروني في الملجأ بكلِّ شيء، أنا لست هنا لألومك، بالطبع لن ألومك. لن ألومك يا أمّي على تركك لي قبل أن تحتضنيني من الأساس، لان ألومك على أنّي تركت المدرسة في سن صغيرة. لن ألومك على أَنِّي أعملُ بَغِيّاً في أحد النوادي الليلية. لا ألومك على كلِّ هذا، ألومك فقط على شيء واحدٍ، أنك سترغميني على أن أفعل بطفلي - الذي لا أعرف أباه - كما فعلت أنتِ بي. أنا امرأةٌ هالكة على كلِّ حال شُخصت بالإيدز منذ أسابيع، وحقًا أحمد الله على

أنني شُخصت به بعد أن أنجبت هذا الفتى التعيس. انا لست هنا كي آخذ منكِ شيئاً، بل لأتركه لك، فهذا الصغير لا يستحق أن يعاني كما عانيت في الملاجئ.

ساد الصمت قليلًا، تفقدت الباب لأرى هذه المرأة المعتوهة قد رحلت، تدّعي أنها ابنتي لا أحد يعلم أني ما زلت حيّةً من الأساس، لقد عشت وعملت وتقاعدت باسم جديد بالفعل. فتحت الباب مُلقية نظرة أخيرة لأتأكد أنَّ تلك المعتوهة قد ذهبت بلا رجعة لأجد هذا الصغير نائعًا في بطانيّةٍ صغيرةٍ، مبتسما وكأنه نزل من السماء، ابتسامة أجبرت شفتاي على الابتسام بينما أنحني لأحمله بين ذراعي، متجاهلةً عظامي التي ضعفت واستيقظتُ أمومتي من سباتها الذي دام لعشرات السنين، وكأنَّ الزمان يحاول أن يعوضني بك أيّها الأمير النائم، وكأنّ الله قدر لك يا نيكولاس أن تسترد عرشك المنهوب.

***

موسكو ٢٠١٨ - قبل تسع سنوات من المؤتمر

- صباح الخير، آمل ألّا أكون قد تأخرت عليك. أنت

المترجم أليس كذلك؟

- في موعدك تمامًا بلى، ديميتري أبراموف، أتشوق حقًّا للعمل مع قامةٍ علميّةٍ مثلك يا سيدي.

- مهلًا أنت تتحدث العربية! يا رجل أين كنت منذ سنوات...



(١٢)

ملائكة وشياطين

مكتب قائد المخابرات الروسية .. بعد المؤتمر بساعات

- ماذا تقصد بكلامك هذا أيها الغبي؟ أرسل وحدةً خاصة في أسرع وقت خلف ذلك الحشرة! .... ماذا تعني أنكم فقدتم إشارته!

ديميتري الخائن كيف لم أتوقع أن يهرب ذلك اللقيط بالباراتوكس، بالطبع بين يديه ثروة تقدر بالمليارات

- اسمع أرسل وحداتنا إلى كل أفراد الطاقم الطبي، لا تقل لي أنكم فقدتم إشاراتهم هم أيضا وإلّا قتلتك!.... حسنا هذا جيد، لا تترك أحدًا دون أن تتحفظ عليه... قلّ لهم أي شيء، قل لهم أن ذلك حفاظًا على حياتهم.. أمّا ديميتري فابحث عن ولده وأحضره لي حيا.... هيا اذهب ولا تتصل إلا وقد نفذت ما أمرتك به أغلقت الخط وجلست أنتظر، لابد أن نجد العالم قبل أن يحصل عليه شخص آخر! سيقتلني الرئيس فور أن تصله الأخبار! بالطبع ولم لا يفعل! نخطط لهذا الهراء منذ عقود! هل أتصل بالرئيس وأخبره أن اتفاقنا مع ميلر مهدد بالسقوط! كل هذا بسبب ديميتري اللقيط!

جلست أُطالع عقارب الساعة وباب المكتب، إمّا أن يدخل علي رجال يقتلونني أو يأتني خبر أحد أفراد الطاقم الطبي الذي لعب في رأس ديميتري. مرّ الوقت حتى فقدت أصابعي أظافرها من شدة القلق، رن

الهاتف فرفعت السماعة قبل أن يكتمل الجرس. بالطبع، ديميتري الغبي الضعيف، كيف لم أتوقع ذلك على الأقل زرع ذلك الخائن أجهزة التتبع في نظارات بعض أفراد الطاقم وفي أمتعة البعض الخاصة كي نراقبهم عن كثب.

أخبرني الضابط أنهم وجدوا كلّ أفراد الطاقم وتحفظوا عليهم إلّا باحثًا إيطاليًا يُدعى ماركو روشو، لحسن الحظ لم نفقد إشارته، هذا الرجل ذو الأربع عيون لا يخلع نظارته إلّا وقت النوم حتى لو فقدناها فعلى الأقل نعلم الآن أين يتجه.

***

مكتب قائد المخابرات الروسية - بعد يومين

قمت من غفوتي بعد أن سمعت طرقات على الباب، أذنت بالدخول فإذا بأحد رجالي يطلب أن يصحبني ليريني شيئا هامًا، بالطبع لقد قتلوا ديميتري! هكذا ظننت في البداية حتى وصلنا لأحد المشافي الخاصّة بالعسكريين في ضواحي العاصمة دخلت غرفة العناية لأجد رجلين أحدهما مبتور الساق والذراع، مشوه الوجه، لكنّه مستيقظ، يحاول أحد الأطباء تضميد جراحه. بينما الآخر كان ديميتري مضمد الرأس. التفت إلى قائد الفريق الذي عاد من مهمة تتبع روشو ونحن نناظر من خلف الزجاج منظر الرجلين المصابين:

- فسّر لي ما هذا؟



تتبعنا الإشارات الصادرة من روسو إلى أحد الفنادق في مارسيليا لم نجد أحدًا هناك، يبدو أن شخصًا قد أخبره أن يغير نظاراته. التقط أحد الأجهزة إشارة من جهاز التعقب الخاص بديميتري، بدا قبالة الحدود الإيطالية مع فرنسا، رأى أحد الرجال ديميتري يخرج من سلم أرضي لقبو أحد المنازل الذي اتضح فيما بعد أنه ملجأ نووي، تحفظ أحد الرجال عليه قبل أن ينزل إلى ذلك القبو ليجد العالم بحالته التي تراها أمامك الآن.....

- ما الذي حدث في تلك الغرفة وماذا وجدتم بها؟

- وجدنا هذا الصندوق هناك كما وجدنا هذه الكاميرا وبطاقة الذاكرة الخاصة بها، يمكنك فحص كل شيء يا سيدي فنحن لم نجد وقتًا كي نفعل، فكما ترى الحالة التي وجدنا عليها العالم.

تناولت البطاقة إذ أنّ بطاريات الكاميرا كانت قد نفدت، والصندوق الذي ظننت أنني سأجد فيه زجاجات من الخمر أو ما شابه ذلك. عدت إلى المكتب مصطحبا معي بعض الرجال، أدخلت البطاقة في حاسوبي اللوحي، فتحت الصندوق لأجد وسط مكعبات الثلج أنبوبًا زجاجيًا به عينة دم، وآخر به سائلًا مُخاطي الشكل والقوام. أرسلتُ مُحتويات الصندوق للمعمل مع أحد الرجال وجلست مع البقية نطالع ما سجلته الكاميرات.

وبعد الكثير من أكواب القهوة والمنبهات وأقراص الكافيين، انتهى تسجيل الكاميرا، ربما شاهدنا كل ثانية فيه مرّات ومرات حتى حفظناه،

كنت خائفًا قبل أيام من أن يقتلني الرئيس لكنني واثق الآن أنني سأكون مكانه ذات يوم.

كانت مدة التسجيل قد تخطّت العشر ساعات، رأينا فيها ديمتري الغبي الذي بدا وكأنه يكلّم أحدًا، لذلك إذًا لم نجد ولده حينما ذهبنا للبحث عنه. يبدو أنه أُمِرَ أن يحقن العالم بما في تلك الأنابيب الزجاجية، لو صدق حدسي فسيطلعني المعمل أن محتوى هذه الأنابيب ليس معروفًا، بالطبع، فمن يعرف محتوى هذه الأنابيب فقد نصف جسده في ذلك القبو. لستُ طبيبا لكنّي واثق أن شيئًا غريبًا قد حدث لذلك الرجل بعد أن حقنه ديمتري بهذه المادّة، لقد شاهد كل ما حدث دون أن يرتد إليه طرفه. والأغرب من كل ذلك أن الرجل قادنا إليه ! لقد شاهدت تلك الدقيقة فوق العشر مرّات أخرج من جيب بنطاله شريحة تعقب كتلك التي نستخدمها، قلبها بين إصبعيه كأنه يبحث عن زر التشغيل ثم ابتلعها بينما كان ديمتري كالأحمق يتجول في الغرفة يمينا ويسارا!

***

مكتب قائد المخابرات الروسية بعد اكتشاف علاج الباراتوكس ٢٠٢٣

- مساء الخير هل علمت بما حدث؟

- بالطبع، تسير الأمور كما خططنا لها، ألم آمرك ألّا تتصل بي؟

- لا تنس يا ذا العجلات أننا من أنقذ....

- وإياك أن تنسَ أنكم على قيد الحياة بسببي، اسمع يمكنك الصياح برجالك كما تشاء، لكنّي في الأخير من يسير الأمور، إيّاك وأن ترفع صوتك مرة أخرى، ولا تتصل قبل أن أرسل لك مستجدات الأمور..... على كلٌّ كنت سأرسل لك العينة الجديدة، جربتها على أحد رجالك الذين وجدتهم يتجسسون حول معملي، إنّها مميتة، ولا ينفع معها ذلك المصل الذي أوصلتهم إليه.

- حسنا، ماذا عن ميلر؟ هل أعطيته الكميات اللازمة؟

- وما شأنك؟ ألم يكن اتفاقنا أن أسلمك الباراتوكس المُعدّل فقط؟ كل شيء بعد هذا الاتفاق لا شأن لك به، يتبقى فقط أن تتم ما عليك فعله.

- أتقصد تلك الصحفية الشقراء؟ لا عليك، سأقودها إليك حالما ننشر الوباء... ما يهم الآن كيف ينتقل الباراتوكس الجديد هذا؟

- لا تشغل بالك، لقد انتشر الوباء بالفعل. إذا أردت الحياة فلا تقترب من رجالك الذين أرسلتهم إلي قبل قليل.

- مهلا ماذا تقصد؟......

أنهى ذلك المسخ اللعين الاتصال بهذه الكلمات التي لم أفهم منها شيئًا، هل صار الباراتوكس أشد فتكا فقط؟ أم صار سريع الانتشار؟ هل يقصد أن رجالي الذين يطالعون المنشأة التي يمكث فيها قد

أصيبوا؟ كيف؟ ما يزالون على قيد الحياة. ماذا يقصد ذلك المسخ... لا يهم، ما عليّ فعله الآن هو إرسال الأخبار إلى الرئيس بالطبع سأرسلها مع أحد رجالي الذين عادوا من عند ذلك المسخ. انتظرت هذا اليوم منذ خمس سنوات.

***

ماسوندو... شتاء ٢٠٢٣

ألقيت من يدي تقريرا عن عدد الوفيات نتيجة المتحور الجديد من الباراتوكس، انا لا أفهم هذا الكلام، ما أفهمه أنني لن أموت الآن. فتحت التلفاز إذ كانت قنوات الأخبار حول العالم لا يشغلها إلا الانتخابات الأمريكية، لا تمل القنوات من استضافة هؤلاء الساسة رفعت الصوت حتى اسمع ما يقوله رئيس امريكا الحالي عن منافسه...

«كما قلتُ لك من قبل، هذه هي الفوضى التي لطالما اصطحبت مثل هؤلاء، لا يمكنهم الصفح! كلّما تعرّض أحدهم للشيء اليسير لا يكف عن النباح والعويل ما زالوا يذكرون الفصل العنصري حتى اليوم ما هذا العبث الجمهورية الفرنسية من أقوى حلفائنا واليوم انظروا لحالها! تسقط في أيدي بعض الارهابيين الأفارقة لا بد لنا كأمةٍ أمريكية أن نحذر، فمستقبلنا بأيدينا، وألاّ ننخرط وراء ادعاءات البعض بأنّ السود لا يأخذون حقوقهم في الولايات المتّحدة، بل من الواضح أنهم أخذوها أكثر مما ينبغي، والآن نجد هذا المتطرف ستيف و الذي قال عندما سئل عن رأيه في الإرهابي " عبد الله كوناتي تهرّب من وصفه

بالإرهابي! من الواضح أنهما يمتلكان نفس الأيديولوجيا، بل ربّما كان اسم ستيف الحقيقي جمال او محمّد، من يعلم حقا!»

- ستيف هل لديك ردّ على هذه الاتهامات؟

- أي اتهامات؟ يبدو لي أنّ ذلك الأبله قال شيئًا منطقيا في النهاية... فأنا بالتأكيد لن أصم ماسوندو او كوناتي بالإرهاب لأنهما يريدان الإنتقام لأوطانهم، مثلما أريد أن أفعل.

- هل يمكنك التوضيح سيّد ستيف، فربّما يسيء فهمك المشاهدون.

- فليفهموها كما يشاؤون، على مدار ثلاثمائة عام و هذا البلد بُني على أكتافنا، نحن من زرعنا القطن و قصب السكّر، و نحن من حاربنا في الحرب الأهليّة لنيل حرياتنا و نحن من شاركنا في الحروب كافّة لنعوّض ما فقدناه من مكانتنا الاجتماعية، ألديك أدنى فكرةٍ لماذا لم يكن بيل جيتس او مارك زوكربيرغ او ستيف جوبز سود البشرة؟ كلّ المشاهدين يعلمون ذلك، السبب ذاته أنه لا يوجد ديف شابيل أو مايكل جوردان او ليبرون جيمس بيض البشرة.

- ألا ترى أنّ كلامك يحتمل بعض التحريض،

سيد ستيف؟

- بالطبع أراه كذلك، كما أرى أيضًا ذلك الأحمق الذي تسبّب بمقتل عشرات الأمريكيين من ذوي البشرة السمراء، أرى ذلك كلّما نظرت بعيني السوداء في البلد الذي لطالما أحببته ولكنّه لم يحبني، هذا



الوطن ممزّق ولا يحتمل تمزيقًا أكثر من ذلك، سأفوز بالانتخابات وسيعاقَبُ هذا الوغد على أفعاله التي لطالما اختبأ وتوارى عن الأعين منها .... لا تنظري إليّ هكذا، أنت تعلمين أن هذا الوغد كان قائد الشرطة السابق في لوس انجلوس، وتعلمين تمامًا ماذا تفعل شرطة لوس أنجلوس فينا سينتهي ذلك بمجرد أن ننتصر ستعود الولايات المتحدة لسابق عهدها.

- ولكن سيّد ستيف، ماذا بشأن وباء الباراتوكس الجديد المنتشر هذا؟ يبدو لي أنك لم تذكره أبدًا في خططك.

- لأنني لا أؤمن به من الأساس، ألم يظهر هذا الوباء المزعوم بمجرد أن شعر هذا الرجل بالخوف من عدم انتخابه للفترة الرئاسية الثانية؟ فكري بهذا الأمر! انا أؤمن أن ميلر قد تسبب بانتشار المتحور الجديد هذا بعد تيقنه من خسارته أمامي.

- سيد ستيف أنت تطلق اتهامات بغاية الخطورة.

- وكأنه كان يُلقي عليّ بالأزهار في لقائه الذي عرضتموه لتوّكم... اسمعي جيدًا. وليسمعني كلُّ أمريكي حرّ يحلم بالعيش المستقر الآمن الأمن يأتي أولا قبل كل شيء، ولن يتحقق الأمنُ إلّا بتحقق العدالة بين كل الأمريكيين، هذا ما لدي لهذا اللقاء شكرًا.

أغلقت التلفاز فأعصابي لا تحتمل هذه الضوضاء حقا سيصبح ذلك الزنجي ذا شأن عظيم. طرق الباب فأذنت للطارق بالدخول.

- صباح الخير سيدي.

- صباح الخير يا فتى، هل أحضرت لي قائمة الإعدامات؟

- ستصلك فور أن تنتهي من شرب قهوتك فخامة الرئيس.

- هيا أسرع قبل أن أُدرج اسمك فيها، ناولني الهاتف.

تناولت الهاتف لأتصل بصديقي

- مرحبا يا كوناتيه، كيف حالك.

- بخيرٍ يا رجل ما بالك تتصل بي في هذه الساعة الباكرة؟

- لا بأس عليك لا تقلق أريد فقط دعوتك لزيارتي. لا حجّة لديك، اليوم هو الخميس وغدًا إجازة رسمية.

- زيارة ودية بالطبع.

- كلّا زيارة رسمية.

- يا رجل ألم تكتف من الزيارات الرسمية، لا يمكنني ترك البلاد الآن نحن على وشك إجراء الانتخابات.

- أعلم ذلك، لكن انظر، أريد التحدث معك بشأن الانتخابات هذه.

- ماذا بشأنها؟



- أما زلت مُصرا على ذلك؟

- بالطبع، هذا ما سيضمن لبلادي الحق في تقرير المصير.

- يا رجل أيّ حق هذا الذي تتحدّث عنه، الناس يعشقونك عندك.

- لا بد من ذلك أيها العجوز، إن أردنا إحداث التغيير فلا بد لنا من البدء بأنفسنا.

- تبًا لعقول الشباب التي عبث بها الفرنسيس حقًا، على كلٍّ لن أستطيع منعك، هذه بلادك في بادئ الأمر وآخره. لكنّك ما زلت مدينًا لي بزيارة رسمية.

- حسنًا سأحاول التنسيق، يا رجل نتحدث وكأننا لسنا رؤساء لدولتين خرجتا للتو من حرب ضروس.

- ربما أصبح كلٌّ منّا رئيسًا لوطنه، لكنّك ستظل صديقي، كما ستظلُّ لقومنا «المُخَلّص».

- ها قد عدنا للحديث عن ذلك، اسمع، يجب أن أذهب الآن لدي زيارة إلى مارسيليا. - بالطبع، سلام عليك أيها «المخلّص».

بالطبع يا صديقي، بالطبع عليك العودة يومًا ما دخل علي مدير المكتب حاملا قائمة الإعدامات، لم تكن كبيرةً كسابقتها منذ شهر. قائمة لا تتعدى المائة اسم فقط، هذا مُخزٌ حقًا، وكأنّ الوطن صار فجأةً مكانًا للصالحين.

- سيدي ذلك الرجل على الهاتف.

- أي رجل؟

- الطبيب، المصل....

نعم نعم حوّله إلى فورا صباح الخير سيدي ..... بالتأكيد..... تحت أمرك بالتأكيد أعلم ذلك... حسنًا... سترى الخبر في الأخبار غدًا..... لا تنس رجاءً ما اتفقنا عليه.... حسنا سأكون عندك بمجرد أن ترى الخبر.

أغلقت الخطَّ و أجريت اتصالا آخر بينما أتفقد بصعوبة قائمة الإعدامات الشهرية تلك، مضيفًا بعض الأسماء وشاطبًا بعضها، أصبحت عجوزا يا تايو وضعف بصرك، يبدو أن هذا المرض يتمكّن منك، لحسن الحظ أن غدًا هو اليوم المنشود. ولقد خسرتُ الكثير كي أصل إلى هنا. أظنّ أن قصتك قد انتهت ها هنا يا صديقي، أوليس «المُخَلّص » هو من يموت دائما من أجل أن يحيا قومه؟

***

ستيفين

- «باميلا»، ما المواعيد التي لدينا للغد؟

- لا شيء مهم سيّد ستيف، لقاء على تلك القناة التليفزيونية التي لا تحبها.

- حسنا فلتلغها، لقد جاءني اتصال للتو يُفيد بأن كوناتيه ذاهب إلى مارسيليا، يجب أن نذهب لنقابل هذا الرجل بأي شكل ممكن.

ولكن سيّد ستيف، أنت تعرف أنّ شمعة هذا الرجل ليست أفضل ما يمكن هنا في الولايات المتحدة.

- تتحدثين كما لو كنتِ منهم، هذا الرجل هو كنز لمن يستطيع أن يخطب وده، هذا الرجل أسقط بسواعده الجمهورية الفرنسية وأجبرها على الاستسلام، ما بالك لو كسبنا خبرته تلك لصفنا، سمعت أيضًا أنّه لن يترشّح لفترةٍ جديدة وسيعود لوطنه حالمًا يُسلّم السُلطة لمن بعده، هل رأيتِ في حياتكِ شخصًا كهذا؟

- ستيف، لقد تسبّب في مقتل آلاف البشر. هل تعي ما تقول؟

- لكنه أحيا عشرات الملايين، علي الذهاب، هذا الرجل سيكون ذا شأن عظيم عندما نفوز بالانتخابات. احجزي لي الرحلة القادمة من شيكاغو لمارسيليا، فورًا.

***

كوناتيه....

ترجلت من الطائرة الرئاسية ببطء شديدٍ على الدرج، أكرّر رحلة أبي منذ أكثر من ثلاثين عامًا، جئت إلى هنا مهاجرًا يا والدي، وهأنذا أعود من المطار ذاته، لكن اختلفت الطائرة، أعود حيث علمتني كلّ شيءٍ، أعود حيث عرفت منك أنني عبدالله ولن أكون عبدًا إلا لله.

ركبتُ السيّارة وذهبت مباشرةً للمنطقة التي ترعرعت فيها، لم تستطع السيارة الدخول من شدة الزحام حول المنطقة بكاملها، كلُّ شيءٍ على حاله، حتى مسجد والدي. نظرتُ في أعين المصطفين، وكأنَّ مارسيليا جميعها جاءت لتحضر خطبة الجمعة، زحامٌ لا آخر لأوله، أناسٌ من كل مكان، أتقدم الصفوف باسمًا في الوجوه، أحضر ذلك الشاب ابنه الصغير ليستمع إلى الخطبة, وهذا جاء ووالده ،القعيد وهؤلاء جاؤوا وعلى ملابسهم تبدو آثار السفر و مشقة الطريق، كل اولئك البشر هنا يا أبي، كلُّ تلك النظرات التي يعجز لساني لأول مرّةٍ عن التعبير أمامها. خلعت حذائي، ودخلتُ المسجد وتقدّمت الصفوف، صفا يلي الآخر، لماذا أرى وجهك يا أبي في كل هؤلاء ؟ لماذا أشعر يا أبي أنك تراني ؟ لماذا لا أشعر بالفرح يا أبي، اشتقت إليك حقًّا أَيّهَا الشيخ.

صعدت المنبر ببطءٍ وكأنّ قدماي تخشيان صعوده، كلا، لست قلقًا لأني لم أحضّر شيئًا لهذا الجمع من الناس، سأترك لساني يفعل ما اعتاد فعله طوال حياتي وقفت ناظرًا في أعين الناس قبل أن ألقي السلام، هل أراك الآن حقا يا أبي أم أن عقلي يعبثُ معي. أمسكتُ مكبر الصوت لألقي السلام على الجمع....

«السلام عليكم ورحمة الله وبركاته»

وأظلمت الدنيا بعد ذلك يا أبي.

***



«انفجار هائل في محيط مسجد السلام بمدينة مارسيليا خلال الزيارة الأولى لرئيس جمهورية مالي للأراضي الفرنسية الواقعة تحت سيطرته..... تابعونا للمزيد من التفاصيل»

لفظت القهوة من فمي، لا أعلم أكان ذلك لسوء طعمها المعتاد أم من هول الخبر ومنظر الأشلاء المتناثرة. رن هاتفي بالتأكيد هي مادلين تفعل ما يفعله كلُّ الصحفيون، يزعجونك. لكنّها تفعل ذلك بطريقةٍ أحبُّها.

- هل رأيت ذلك!

- نعم رأيته للتّو، هل لديكِ خبرٌ عن عدد الضحايا والمصابين، هل يمكن أن نساعد أحدًا؟

- كلّا، لن يستطيع أحد المساعدة، من الصور التي لدي لابدَّ أنَّ عدد الضحايا تخطى العشرة آلاف... قالت بصوت اختلط فيه الحزن بالشفقة.

لم أرد، فقط ظللت صامتا منتظرًا منها أن تستكمل حديثها.

- لقد كانت تلك الزيارة الأولى لكوناتيه والذي من المفترض أنّ فترته الرئاسية أوشكت على الانتهاء، ألا ترى من الفاعل حقًّا؟

- لا أعلم بالتأكيد هو شخص لا يريده أن يفوز بالانتخابات، أليس كذلك؟



- كلّا أيّها الجاهل كوناتيه لم يكن مرشحًا بالأساس، لقد تنازل عن الحكم طواعية.

أيها الجاهل تُذكّرني تلك الطريقة بصغيرتي، سلمى، ليس هذا هو الوقت المناسب يا رجل كي تذكرها، هناك الآلاف تحولوا لأشلاء دون أي سبب يذكر. أوقفتُ شريط الذكريات قبل أن يبدأ، وقلت

- إذا هو شخص لا يريد أن تحدث انتخابات من الأساس؟ أو شخص ربّما يريد أن ينتقم لفرنسا بعد الحرب، شيء من هذا القبيل ربّما؟

- بالتأكيد، لا يوجد خيارٌ ثالث... مهلًا مهلًا، هل تنظر للأخبار الآن؟ أترى ذلك الرجل؟

كنت قد أصمتُ التلفاز كي أميز صوتها من صوت صافرات الإنذار، أعدت تشغيل الصوت ونظرت للشاشة، رأيت ذلك الرجل ذو الشارب العريض، حليق الذقن، قصير الشعر، يشبه لاعبي كرة السلة الأمريكية.

- أظنُّ هذا الرجل مألوفًا لدي، أليس ذلك سياسيًا أميريكيًا أو ما شابه؟ ماذا كان يفعل في ساحة المسجد ؟ قلت بينما كنت أعدُّ لنفسي فنجان القهوة بدلًا من ذلك الرديء الذي لفظته على الأرض.

- بلى، هو ستيفين ،جرين، المرشح الرئاسي للولايات المتحدة الأمريكية، يكن الكثير من الاحترام لكوناتيه وأظنّه جاء لمقابلته.

- لا أثق بهؤلاء القوم. قلت ذلك متأقفا.

- من تقصد بهؤلاء القوم؟ ... سألتني بلهجة مستنكرة لدرجة أنني شممت رائحة الغضب.

- الأمريكيون، لا أثق بهم، أتذكرين ذلك المؤتمر الذي قال فيه رئيسهم أنه سيحصل على المصل المضاد للباراتوكس حتى ولو كلّف ذلك أن يضرب كل من يمنعه بالقنابل النووية؟

- لا تكن ساذجًا، ما تلك إلا دعايات انتخابية لكي يفوز على ستيف.

- كلّا لا أقصد ذلك .... قلت بصوت عال وكأني أحاول الدفاع عن نفسي .. فالرجل الذي يتوعد بقصف العالم بالقنابل النووية بالتأكيد لن يتوانى عن قتل بضع آلافٍ من البشر من أجل التخلّص من عدوّ واحد أو ربما عدوين، فبالتأكيد يكره كوناتيه كذلك.

سكتت قليلا وبدا لي أنها تفكر في كلامي، لتكمل قائلةً

أتدري بالتأكيد إنّها الولايات المتحدة الأمريكية هي من قتلت كوناتيه و ستيف، أرادوا إسقاط صقرين بعيار ناري واحد فقط.... لا أريد أن أطيل عليك، سأطلعك على أيّ جديدٍ وأنتظر منك المثل كذلك.

- ماذا عن المتحور الجديد؟ أي أخبار؟

- كنت لاسألك السؤال ذاته، لا شيء، فقط أعداد الموتى تتزايد وكأنها في سباق.

- لقد تعبت حقا. اطلعيني إن جد جديد.



ما كنت لأتوقع أن يتطور الباراتوكس بهذه السرعة كي نعود إلى نقطة الصفر. وكأن هنالك شخص ما في مكان ما بهذا العالم يتحكم به ويطوره كيفما يشاء. يا لسذاجتي، انا لست مثلك يا أخي، لن أكون مثلك. ترسل إليّ جوليا تقارير يوميا عن تدهور الحالات باالمعمل، وترسل كل منظمات الصحة تقريرا عن المصابين والضحايا الجدد.

اتصلت بي مادلين مؤكدة أنها وجدت مكان هذه المنظمة التي تتاجر بحياة الملايين من البشر، موسكو، وكأنها كانت تعلم من البداية.

***

ميلر...

وقفت أمام الباب منتظرا حتى فتح لي رجل آلي غريب الشكل، رأيت رجلا جالسا على كرسي متحرك يمسك بيده طوق كلب، لم أتبين ملامحه من الجانب، لكنّي تبينت ملامح من بالطوق عندما زمجر باتجاهي قبل أن ينهره ذلك الرجل:

- تايو، اهدأ يا فتى.... فتى مطيع.... فتى جيد....

كان ماسوندو مربوطا من عنقه بطوق للكلاب، كثيف الشعر، عاري الجسد، يطمس وجهه بقطعة لحم كبيرة الحجم. كسرت الصمت.

- سيدي... انا هنا من أجل الاتفاق.

لم يلتفت إليَّ الرجل شعرت لوهلة أنه ليس آدمياً، قبل أن أتابع: - أخبرني الرئيس الروسي إنك بانتظاري .... لقد فعلت ما أمرت به.... نفذت جانبي من الاتفاق... منعت البلاد من التدخل لحماية فرنسا.... موّلت ماسوندو.......

قفز ماسوندو باتجاهي حتى كاد يُسقطني أرضًا قبل أن يرفع الرجل صوته ليهدأ ويستقر إلى جوار كرسيّه المتحرك. شعرت بالخوف، فهذا الكلب المطيع كان ينفذ العمليات التي جعلت السكان في وطني يموتون. حاولت التماسك وتابعت دون أن ينظر إلي الرجل:

- عاهدتك فأوفيت بعهدي، أرجوك ... الناس يموتون في وطني بذلك المتحور القاتل.... لقد وعدتني أن تعطني المصل...

أشار الرجل بإصبعه فجاء ذلك الآلي حاملا معه جرعة، كشفت عن ذراعي ليحقنني بها هذا الآلي، بينما ظل الرجل يداعب رأس ماسوندو دون أن ينظر باتجاهي.

- شكرا لك سيدي سيذكر التاريخ أنك من الآباء المنقذين للولايات المتحدة الأمريكية، سيعرف الشعب الأمريكي أن حياته ما كانت لتستمر من دونك......

(١٣)

كارمينا بورانا

- أنا آسف لا يمكنني مبادلتك نفس المشاعر.

كان ذلك ردي المقتضب على مادلين الجالسة أمامي في شرفتي باكرًا في الصباح، لا يمكنني أن أحبَّها، فأنا أبحث دائمًا فيها عن سلمى، سيكون هذا ظلمًا لكلينا. بدت عيناها حزينتان بشكل كبير، توقعت ذلك، ليس من السهل أن يتعرّض أحدٌ منّا للرفض خاصّةً عندما تكون واثقًا ثقةً لا يخالطها شك في مشاعر الطرف الآخر.

- حسنا، يبدو أنني تماديتُ كثيرًا، معذرة.

قالت ذلك بتماسكٍ تُحسد عليه بينما تقوم من مقعدها حاملةً قهوتها لتضعها بالداخل. ابتسمتُ لها بلطفٍ شاكرًا إيّاها على تفهم موقفي. لتردَّ على بسمتي ببسمةٍ لا يضاهيها جمال.

- حسنًا، ماذا سنفعل الآن؟ سألتني متناسيةً ما قلناه منذ لحظات.

- ما يفترض بي فعله، سأغادر قبل انتصاف الليل.

- سآتي معك. قالت ذلك بلهجةٍ قويّةٍ وكأنها تأمرني لا تطلب.

- كلّا، سأذهب وحدي في النهاية لا أريد تكرار ما حدث لصبري معك، لديك أُناس يحبونك في النهاية... بالمناسبة، كيف حال والدك؟



- تزداد حالته سوءًا يومًا بعد الآخر، لهذا أريد الذهاب معك، لآخذ المصل معي وأعود إلى لندن مرةً أخرى.

كانت تكذب، هذه المرأة تحبّني حقًّا، هي تعلم أنني في عداد الموتى لا محالة وتريد مرافقتي لمصيري. لا بأس يا صديقي، ها قد وجدنا شخصا يحبني قبل أن يموت بسببي. - لا تقلقي، لن أموت الآن.

قلتُ ذلك يائساً محاولا أن أطمئنها. لكنّي فشلت بشكل مريـع.

- ليس هذا ما يشغل بالي، أريدُ حقًّا الحصول على ذلك المصل، لا تنسَ أنني من دللتك على هذا المكان.

- لا تقلقي، لن أعود بدونه.

رافقتها للباب مودعا إياها بلطف، أخبرتني أنّها ستطير إلى لندن للاطمئنان على حالة والدها المريض، سيكون ذلك بلا شك أكثر أمنًا من أن ترافقني لعرين الشيطان ذلك. أخذتُ المصعد هابطًا للمعمل، أمشي بتثاقل وكأني أشعر أني لن أراة مجدّدًا، ربّما ستكون تلك الحسنة الوحيدة حقًا أنني لن أضطر لإجراء اختبارات على البشر مرّةً أخرى. أتفقد جوليا مودعا إياها قبل أن آخذ المصعد للجراج، أخذت سيارتي وانطلقت للعاصمة، حيث بدأ كلُّ شيء.

كان النهار قد اقترب على الانتصاف بينما أتجول بسيارتي في المدينة، انظر إلى كلّ تلك الشوارع الخاوية أصبحت تبدو كمدينة للأشباح، بالطبع مات الجميع، ومن تبقى على قيد الحياة معزول في مدينة

صغيرة تبعد كثيرا عن هنا. نزلت من سيارتي أمام معملي القديم لتعود إلي تلك الذكريات عندما رافقتني سلمى هاهنا في بادئ الأمر. نظرت إلى صورتنا المعلقة إلى جوار الباب، بالطبع أذكرُ يا صغيرتي ذلك اليوم، كيف أنسى أنني من تسببتُ بقتلك بهذه الأقراص التي أعطاني إياها أخي، سامحيني.

أخذت أتفحّص المعمل بدون سبب واضح، أتجوّل فقط هنا وهناك قبل أن أرتدي معطفي مرّةً أخرى متجهًا للمنزل، ليس منزلي، بل لمنزل عائلتي الذي لم أدخله منذ ذلك اليوم. ذهبت مترجّلاً، فقد شعرت أن قدماي تريدان الشعور بالحياة هنا فتحت البوّابة الحديدية الكبيرة، كثرت النباتات بشكل أشعرني أنني دخلت غابة صغيرةً، مازالت طاولتي في الحديقة في مكانها بعدما تأزّت بفعل هطول الأمطار طيلة السنوات الماضية، تنتابني القشعريرة حقًّا بينما أتجول هنا. بتسارع كانت ساقاي تذهبان للباب ملبيتان ظنَّ عقلي الساذج أنّه لربما إن فتحت الباب سأجد أمّي موبخةً إيَّاي على تأخري. مهلا يا قدماي، لا تسبقاني.

ببطء شديدٍ فتحت الباب، بالطبع يبدو كبيت لا تسكنه إلّا الأشباح ولربّما سأكون سعيدًا إن ظهر لي شبح أعرفه الليلة. لم يكن البيت متسخًا وكأنه هُجر لسنوات، لقد كان حقًّا محكم الإغلاق طيلة هذه الفترة ذهبت للصالة التي صعدت منها أرواح الجميع للسماء، أرى ذلك اليوم يحدث أمامي مجددًا، أرى أبي يأكل لحم صدر أمّي، أرى ليلى باكيةً تنظرُ إلي أرى أمّي لا تقوى حتى على البكاء، أشعر بكلّ ما شعرت به تلك اللحظة، حتى ذلك الألم الذي حطّم رأسي، مازلت أشعر به

توجهت لغرفتي القديمة، لا بأس إنْ نِمت حتى الليل فما زال أمامي الوقت حتى موعد الطائرة.

***

مادلين

نزلتُ من الطائرة مسرعةً عساي أصل في موعدي قبل أنْ تسوء الأمور، كلّا لم أذهب إلى لندن، توجهت فورًا إلى موسكو. وجدتُ السيارة التي تمَّ الاتفاق عليها تنتظرني أمام بوابة المطار. لم آبه لذلك الجوّ البارد ولا للثلوج التي غطت كلّ شيءٍ، لم آبه إلّا أن تأخذني هذه السيارة للمكان المحدّد بتأنٍ شديد حدّدت الموقع لتتجه السيارة إليه، جيّد أمامي أقل من ساعة ونصف للوصول.

أخرجت هاتفي لأتفقد حالَ أبي ناظرةً من خلال كاميرات المراقبة حوله، يبدو مستقرًا على كل حال، لا تقلق يا أبي، لن أكرر الخطأ الذي وقعتُ فيه منذ عشرين سنة مضت، لن أضيّع عائلتي من أجل أيّ شيءٍ مهما حدث، سأختار القرار الصائب هذه المرة القرار الصائب؟ هل أخدع نفسي حقًا؟ أنا لا أعلم أيُّ الخيارين أخيرهما، لن أُجهد نفسي في التفكير في أشياء لن تجدي نفعًا. قمت بفتح الصوت حتى يسمعنى أبي في فراشه مناديةً إياه...

أبي، لا تخف يا عزيزي أنا آتية قريبًا جدًا، سآتي بالمصل لي ولك، لن أتركك مرّةً أخرى ستكون بخير أيّها الوسيم، أحبك، إلى اللقاء.

مر الوقتُ سريعًا بينما كنتُ أتصفح بعض صوري القديمة، نزلت من السيارة أمام ذلك المبنى الكبير، كان مميزًا حقًّا، يقف شامخًا وسط أرض بيضاء تمامًا، لا يوازيه في الطول إلا شجرة عملاقةً بحق، لا يهم، أنا هنا من أجل شيءٍ محدّدٍ. وقفت باحثةً عن زر الجرس أو ربما أي شيءٍ يفتح الباب، لكنه فُتح من تلقاء نفسه، باب عظيم الطول شديدُ السُمْكِ، يتناسب حقًا مع حجم هذا المبنى. شعرت بقشعريرة انتابت جسدي، حاولتُ تنظيم أنفاسي تماسكي يا فتاة لقد اقتربت كثيرًا. تقدمت بالسير متجاهلة قلبي الذي كان يصرخ ليخرج من مكانه، كلّا، لن أدع قلبي يحدّد مصيري سأستمر بالسير إلى الأمام بابًا يلي الآخر، حتى فتح الباب الأخير. كانت كغرفة تحكم عملاقة خافتة الإضاءة، بها الكثير من الشاشات التي تعرض ما تراقبه الكاميرات ذهبت بنظري يسارًا ورغم خفوت الإضاءة رأيته. عجوز على كرسي متحرك، لا أرى من أطرافه إلّا ساقًا وذراعًا واحدةً يمسك بها طوقين يستخدمان عادة لربط الكلاب، لكن المربوطين بهما الآن ليسا كلابا، بل عجوزين عاريين يلتهمُ كلٌّ منهما قطعةً كبيرةً من اللحم النيئ. قطعتْ زمجرة أحدهما تجاهي لحظات الصمت أمعنتُ النظر في وجهه، أعرف هذا الرجل. هذا هو....

- ميلر! اهدأ...

قالها بصوت خشن أعاد إنسانه الأليف إلى قطعة اللحم ،خاصته، نظرت في وجه ذلك الرجل على الكرسي ذي الشعر الأبيض الطويل، والعين اليسرى المطموسة داخل وجهه، وعظام وجهه العارية كأنّ

اللحم من أمامها قد سقط. لا أظنني رأيت ذلك الوجه - أو ما تبقى منه من - قبل.

- هل نفذت الاتفاق.

سألني بصوته الخشن فلم أستطع مقاومة تلك الرجفة. ماذا حلّ بهذين الرجلين ولماذا يربطهما هكذا كالحيوانات هل أسأله؟ وما شأني في ذلك، أنا هنا من أجل تنفيذ الاتفاق.

- نعم، من المفترض أن تصل طائرته بعد ساعات قليلة.

أشار برأسه لتأتي إنسانة آلية مقدمةً إليّ جرعتين من المصل، نظرت للرجلين بجواره بينما يأكلان قطعة اللحم الكبيرة ذاتها.

- لا تقلقي، لن تصبحي مثلهما.

قالها وهو يربّت برأسه على أحدهما بلطف قبل أن يُكمل.

- يمكنك الذهاب الآن.

أخذت الجرعتين من تلك الآلية وأعطيت المكان من حولي نظرةً خاطفةً قبل أن أستقبل الباب قبل أن تنزل كلماته علي كالصاعقة...

- شكرًا لك يا سلمى.

سلمى كيف يعرف؟ هل كان يعرف من البداية؟ ألهذا إذًا أراد مني أن أجلبه إلى هنا؟ جعلني أسوق الرجل الذي أهديته كل سنوات عمري

الماضية إلى هنا، حقًّا؟ خرجتُ متثاقلةً من الباب محاولة منع عيني من الانهيار، ومازالت صرخات قلبي تتعالى ركبت السيارة وبدأت بتحديد وجهتي للمطار، تفقدت هاتفي، لأجد أن شركة الطيران تذكّرني بموعد الرحلة إلى سيدني بعد ساعتين، لم أحجز تلك التذكرة من الأساس. بالطبع كان يعرف من انا منذ البداية. نظرتُ في صورةٍ كانت تجمعنا ذلك اليوم في معمله، لم تتماسك عيناي انا آسفة يا صغيري آسفة من كلّ جوانب قلبي الذي يصرخ بداخلي. آسفة لأنني اخترت بعقلي هذه المرة.

أوقفت السيارة، كنت قد اقتربت من المطار وفتحت النافذة عسى أن تبرد الثلوج نيران قلبي. ممسكةً بجرعتي المصل بيدي، أطلت النظر لصورتنا معا، ولأبي الراقد على فراشه في أقصى الأرض، لقد اتخذت قراري من البداية، أنا آسفة.

***

استيقظتُ من نومي على جرس هاتفي، مذكرًا إياي بموعد الطائرة، اقترب الليل على الانتصاف بالفعل ولابدّ لي من الإسراع قمتُ سريعًا من مرقدي وألقيتُ نظرة الوداع على المنزل قبل أن أستقل سيارتي للمطار، لم أشغل بالي بالكثير في هذه الأثناء، أحاول فقط أن أسترخي فلقد اقتربت من الوصول للحقيقة، هل تظنني سأعود من هذه الرحلة منتصرا؟ لا أعلم، ولست مهتما كذلك، لكن أتعلم ؟ انا مرهق يا صديقي، فقط تمنى لي الحظ.

مرّت رحلتي لموسكو بسرعة، لم أستطع التفكير بشيء طوال الطريق، فيم سأفكر برأيك؟ لا شيء، فرأسي لا تملؤه إلّا الذكريات المتضاربة والأحداث التي أرهقت عقلي. هبطت الطائرة ونزلت منها متوجهًا لمكتب استئجار السيارات بالمطار، استأجرت سيارةً حديثةً بما يكفي لتشغيل نظام القيادة الذاتية، أدخلت بيانات الموقع الذي أعطتني إياه مادلين ليلة الأمس وبدأت الرحلة ساعة ونصف، ستكون الشمس قد أشرقت بالفعل أرحت ظهري وتصفّحت المواقع الإخبارية من باب تمرير الوقتِ لا أكثر. يا رجل هذا العالم عجيب حقا، كلّما ظننت نفسك مدركًا له يفاجئك بما هو أعتى وأشد. انظر إلى الولايات المتحدة على سبيل المثال، اختفى رئيسها تمامًا بعدما وعد شعبه بتوفير المصل للجميع ولا يعلم أحدٌ مكانه حتى الآن، انظر إلى عدد الضحايا لديهم، أكثر من مائة مليون فقدوا حيواتهم، ومائة آخرون بين العجز الكلّي والغيبوبة وسيموتون عاجلًا أم آجلًا.

وصلتُ إلى وجهتي علمت ذلك عندما توقفت السيارة في مكان قفر لا ترى فيه إلا اكتساء الأرض بالثلوج، وتلك الشجرة التي تشبه بشكل كبيرٍ شجرة الكافور تلك أمام معملي، بالطبع ليست بذلك الارتفاع، لكنّها تقترب منه وهذا المبنى الضخم الذي يشبه المباني الحكومية. ترجلت من السيارة ببطءٍ يضاهي صعود الشمس من سباتها في الأفق، بخطوات ثقيلةٍ في أكوام الثلج الذي يبدو أنه تساقط من السماء طيلة الليل. بحثتُ عن أيّ شيءٍ في الباب يمكنني من فتحه، دفعته دفعا إلى الأمام ليخرج مستشعر بصمةٍ ويلتقط عيني اليسرى، فيفتح الباب.

مهلا؟ كيف هذا دخلت الباب وتباطأت قدماي أكثر فأكثر، إنّه الممر الأبيض بذات الإضاءة البيضاء المائلة للزرقة، والباب ذاته.

دنوت برأسي واضعًا عيني اليسرى أمام مستشعر البصمة ليفتح الباب الثاني لتنطلق رشاشات البخار المعقم اقتربت من الباب الأخير بعيني اليسرى مرّةً أخرى، نعم كنتُ محقًا، هو الباب الأخير. فُتِح الباب لأجد نفسي هنا، في معملي، الشاشة ذاتها على يميني التي تظهر كل شبر بداخل المعمل وخارجه، أنا حقا في معملي، هذه الشاشة تظهر الصحراء لا الثلوج، هل هذا حلم من أحلامي الساذجة أم أنني دخلت فجوةً زمنيةً. ذهبت مباشرة للغرفة الرئيسية لأرى أن شخصًا هنالك مستلق على ذلك السرير في منتصفها وبجانبه كرسي متحرك اقتربت ببطء شديدٍ بينما تتضح لي معالم ذلك الراقد هناك، اقتربت أكثر لأراه ناظرًا إلي، نظرت في عينه فابتسم بوجهي لتتسارع الأفكار في عقلي مزاحمة أحدها الآخر تريد الوصول إلى لساني كي تسأله، لماذا؟ وبقدر تسارعها كانت عيناي تفيضان من الدمع. كنتُ فقدتُ كُلَّ شيءٍ بالفعل، لكن هذا شيء آخر.

جاءت جوليا لتناولني حقنة القتل الرحيم، تناولتها، لأغرسها في رقبته ببطء لتهرع دمعة من عينه إلى وجنته مكملةً رسم ابتسامته، بينما يمسك بيمينه يمناي حتى شعرتُ بارتخائها، أغمضت عينه وأدرت ظهري متوجهًا للوحة المفاتيح بالخارج، بالطبع يعلمُ كلانا أنا وأنت ماذا سأفعل .... أظلمتُ المعمل بالكامل وفتحت النوافذ ليدخل ضياءُ شمس الصباح في أرجاء المعمل بكامله، فعّلت نظام التدمير الذاتي ليبدأ العد التنازلي وعدتُ للغرفة ذاتها، ببطء ينافي تدفع عيناي

وعقلي تسير قدماي باتجاه البيانو، جلستُ على المقعد وطقطقت أصابعي ناظرًا في النوتة الموسيقية، بالطبع مقطوعتك المفضّلة يا أخي.

ليلى سلمى أمي ... أبي ... صبري اشتقت اليكم حقا.

تمت بحمد الله...

إهداء

{لكلٍّ إهداؤه، فابحث عنه بين السطور}

تمّ تجهيز هذه النسخة بواسطة:
أشرف غالب.

twinkling_7

تمّ تجهيز هذا الكتاب الإلكتروني
بـواسـطـة:



لجميع الكتب، المجانية والمدفوعة،
وكل ما تشتهيه قريحتك الثقافية.

يحيى عزام

عندما يعزف الشيطان

انظر في عَيْنَيَّ وصف لي ماذا ترى، هل أنت خائف؟

أحسنت! أنت تجيد تقدير المواقف، باستثناء ذلك الذي أتى بك إلى هنا.

لا يا عزيزي لا تَبْكِ الآن، ليس قبل أن أستمتع بك قليلًا.

اطمئن، سأجعل ميتتك بَطِيئَةً ومُذِلَّةً كما لم يَتَسَنَّ لعقلك أن يتخيلها.





ISBN 978 977 778 300 2



